



عبد الإله بلقزيز

لَيْلِيَّات

نص

تقديم: مرسيل خليفة



منتدى المعارف

alMaaref Forum

عبد الاله بلقزيز



لَيْلِيّات

نصّ

تقديم: مرسيل خليفة



منتدى المعارف
alMaaref Forum

لَيْلِيَّات

نصّ

الفهرسة أثناء النشر - إعداد منتدى المعارف

بلقزيز، عبد الإله

ليليات: نص/عبد الإله بلقزيز؛ تقديم مرسيل خليفة.

١٧٤ ص.

ISBN 978-614-428-025-6

١. نصوص أدبية وشعرية. أ. مرسيل، خليفة (مقدم). ب. العنوان.

892

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٣

منتدى المعارف

بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت

ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ - لبنان

بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

وليلٍ كمْوجِ البحرِ أرخى سدولَه

عـلـيَّ بـأنـواع الـهـمـوم ليبـتـلي

(أمرئ القيس)

المحتويـات

صَباح اللَّيْل

تقديم: مرسيل خليفة

من الأزرق البعيد، من أرضٍ تحملُها أشجارُ الأرز، من المغربِ العربيِّ تأرجح عبد الإله بلقزيز بين الحلمِ والطَّيفِ...

شَرِبَ من حنفيَّةِ ماءِ البحرِ، وشاهدَ حوريَّةً تُفتِّشُ عنه...

جَمَعَ ما بعثَرَتْهُ الأيَّامُ، وأكمَلَ الطَّريقَ ليلسعَهُ شتاءُ الخريفِ. حملَ الهواءَ بيدَيْهِ ليبحَثَ عَنْ أُمٍّ أنجبَتْهُ، وَعَنْ أبٍ رَحَلَ باكِراً في مُدُنٍ بَقِيَتْ على حالِها، أو قد تكونُ مَا زالَتْ على حالِها...

لم يولَدْ من نزوةٍ طائشةٍ، خَرَجَ إلى الدُّنيا على مِنْوالِ إيقاعِ الحُبِّ... مِنْ نارٍ لا يوقِدُها حَطَبُ

البَراري، مِنْ شَرْشَفٍ تضرَّجَ بِالدَّمِ القاني، مِنْ دمعةٍ شاهِدَةٍ على الوِلادَةِ. . .

يدورُ كالأرضِ قُبالَةَ الشَّمسِ ليُهدِيَنا لَيلِيَّاتِهِ، وليُخفِّفَ وَجَعَنا. . .

يرنو إلى الغابة في البعيدِ فيشتعلُ الأخضرُ. . .

إنَّ الحياةَ ما زالت ممكنةً في ليلِ بلقزيز، تفهمُه المرأةُ أكثر وتخطب ودَّهُ. . .

إمرأة متنوِّعة بلا حدود. . . لقد انتبه إلى اللَّيلِ مبكراً، تذوَّقَ طعمَهُ منذ الطُّفولةِ. . .

لستَ وحيداً يا عبد الإله؛ لا تَخَفْ من ضرورةِ الجنونِ الكامنِ في دواخِلِكَ، دعه يتحوّلُ إلى طاقةٍ إبداعيَّةٍ، إلى شِعْرٍ. . .

رَوِّضْ لُغتَهُ على التَّحليقِ بعيداً، خارِجَ المدرَسَةِ والحيِّ. . .

تيَّارانِ يتجاذبان نهاراتِه، وللبيتِ ليلٌ يحرسُ عرشَهُ. . .

ولدٌ يرتكبُ أخطاءَه الفاتِنَةَ الَّتي تُشَكِّلُ فِعْلَ مُشاغَبَةٍ، عصياناً وجوديّاً، ونزعةً حادَّةً للإفلاتِ مِنَ القَطِيعِ. . . يدعو الآخرينَ إلى ارتكاب الشَّغب

نفسِهِ... ليست لديه معجزات، لديه مخيِّلة وأحلام...

بدأ طفلاً ولم يكبر، مع أنَّ الجدَّةَ تحمي الصِّبا ممّا يمنعُه من التَّفتُّق، وتستعجلُه لوداعِ الطُّفولة...

العَبَثُ ضَرورِيٌّ كي نَكونَ، كنُقطَةِ الماءِ الَّتي أخرَجَتْنا... هل كنّا سنكون لولا الجنون؟!

نعبثُ لينطلقَ المستحيلُ، ونكتبُه على ألواحِ الحياة... نعبث لئلَّا يضيعَ منَّا الجميلُ وينكسرَ على شُروخِ الوصايا، نعبثُ من جديدٍ عَلَّ المعنى يَطيبُ لِلحُبِّ كما يَطِيبُ لَنا النَّبيذُ...

يا سَيِّدَ الصَّمتِ؛ إنِّي لأذكر يوماً خريفيّاً مع هُطولِ مطرٍ خفيفٍ... كان إيقاعاً مجنوناً لعاصفةٍ مكبوتةٍ، دون أن أفطنَ إلى ذلك... أتأمَّلُ خارجَ القاعةِ صفّاً حائراً من الأشجارِ وجُمهوراً حاشِداً لا تَسَعُهُ القاعَةُ الكَبيرَةُ. كانَ عليَّ أن أبدأ الأمسيةَ، وكنتُ ساكناً، غيرَ أنِّي أحسستُ بصوتِكَ يشدُّ من عزيمتي في عُزلةِ الدَّقائقِ الأخيرَةِ في الكَواليسِ... قبل الصُّعودِ إلى ركح محمَّد الخامس، وفي صَمتٍ كبيرٍ، قال يومَها الوتر ما وراء الجلد والعظم... قال بوحاً شجيّاً عَجِبتُ أنا لَهُ...

كانَ العَزْفُ انعِدامَ الواسِطَةِ بَيْنَ الإحساسِ والنَّغمِ... لا ريشة... لا وتر... لا أصابع... لا عود...

كان عزفاً على النَّغم مباشرة... وكانت هذه هي الحفلة الأولى في المغرب... كانت تحيَّةً من القلب لمن جعل لي من العودِ رمزاً لما هو حميم وأصيل وهادف...

وفي الصَّباحِ الباكرِ التقَينا في الفندقِ على كعبِ الغزالِ وكاسةِ شاي.

كان قلبُك كالطِّفل في وجع غموضِه... تضرَّجَ خجلاً ليشيِّدَ كَونَهُ...

عبد الإله بلقزيز رافَقَ أغنيتي منذ ميلادِها وحتَّى اليوم؛ نسخ ووزّع آلافَ الكاسيتات في الجامعات في سنوات نهاية السبعينيات. ويشهد على ذلك سعيد المغربيّ، ذلك الفنَّان الجميل، حيث تحوَّلت الغرفة رقم ٢٣ في الحيِّ الجامعيِّ بمدينة فاس إلى مركزٍ سرّيٍّ لتَبادُلِ الكاسيتات الممنوعة.

يا صديقي؛ أنظر اليومَ إلى شاطئ ذكرى بعيدةٍ، تحتَ سماءٍ حارقةٍ... وطن عربيّ شاسع وقد أُخِذَتْ منه زينتُه، عسير النُّطقِ، مُتوحِّل في أوَّل الرَّبيع...

أتقشَّف في التَّحديقِ ولا أطيلُ النَّظرَ... شيءٌ في داخلي يُطلِقُ ريحاً في الغَمامِ...

يُولَدُ من بحرٍ قديمٍ ويحرِّرُني مِنْ قَرَفِي... أحتاجُ إلى كوفيَّةٍ عربيَّةٍ أمسحُ بها دمعاً حارِقاً كالصَّدِيدِ...

لقد تقرَّحَ قلبي من عَفَنِ المرحلةِ ومن تَعَبِ أسئلَةٍ قاحِلَةٍ... كيفَ أروي شيئاً مِمَّا أرَى؟ لعلَّه شيءٌ من الماضي الجميلِ...

أسهرُ على وَقْعِ حِبْرِ **ليليَّاتِهِ** في العَتمَةِ أذرفُهُ... أطيرُ مع صَهيلِ الذَّاكِرَةِ وأزدادُ ليلاً في اللَّيلِ، كاللَّهبِ المتضرّم يرتجف في المصباح...

هل لهذه **اللَّيليَّات** معنى يحمل رسالة من وراء الحياة؟ يحدّق بوحشة وينحني لزهرة...

أظنُّ أنَّني أقرأ كلمات حُبٍّ عابقة بزهر اللَّوز... أرغبُ نصّاً في عزلة الروح ووحدتها لأصغي إلى حفيف أجنحتها...

ليليَّات تحرِّرنا من الكآبة في قراءة صامتة، بكلمة سرِّيَّة مبعثرة كالماء، وهي تصنع مجراها وتتدفَّق، ولا شيء يمنعها...

أكتشف الوحدة حين أكتشف الامتلاءَ... يخرج

إلى المقهى ليخفِّف من وحدتِه، لكنَّه ينتحي الرّكن القصيَّ وحيداً... هَزَمَتْهُ الوحدة وأَمْطَرَتْهُ بمائِها ورمادِها، وبلسانِها أنطقَتْهُ وأخرَسَتْهُ...

يحمي وحشَتَهُ بلغةٍ تحمي نفسَها من امرأةٍ تقطفُه من الاستغراقِ في ذاتِهِ... الإيمانُ وروعةُ الشّكِّ، وما أطيب اليقين لولا ضجيجُ الشَّكِّ في الجنونِ...

ليليَّات لا يُرْهِقُها بقواعد السِّياسة، والثَّقافة، والخسارة، والحرب، والملاحم، والهزائم، والمرأة، والشَّهوة، والحسرة... يرفعُ القيدَ عن حميميَّاتٍ، ويحرِّرُ الكتابةَ من ضجيجِها...

ليليَّاتُ الوجودِ ونهاراتُ العدَمِ، والنَّهارُ يتَّسِعُ للضَّوءِ والضَّوضاءِ...

أراه شاعراً، يكتب بلا سأم ما يشاء ممّا انصرم، وغيرَ قليلٍ من الآتي...

يهذي ويَعْقِلُ الأشياء، ويختزن الألم، ما همَّه إن خَسِرَ العالم وربح نفسه...

لم تهدأ الرِّيح والموت الهاطل يجعِّد المساء، ولكن في انسدال المغيب تسحرُه عينان تغرقان في الأزرق...

البحرُ كعينيها، ولو كنتُ ساحراً لجنّدتُ لجناحَيْكِ الرِّيح، وأوقدتُ في دمِكِ قَبَسَ الحبِّ، وأعفيتُ شجاعتَكِ من التَّردُّدِ...

يا صديقي؛ لقد أحببتُ البحرَ منذ علَّمَني جَدِّي سِحرَهُ الخُرافِيَّ... وكنت لعشقي لجدِّي ولبحرِهِ الصَّغيرِ أحرسُ الحنينَ إلى الطُّفولَةِ بين حبَّاتِ الموجِ، ينتحِرْنَ على قصبَةِ الصَّيدِ لتنقرَها الأسماكُ المجنونةُ...

نرفَعُ الشِّراعَ قارِباً يمخرُ العُبابَ، ويَمسَحُ السَّحابَ عن ظَفائِرِ شمسٍ تجدُلُ في الأفُقِ البعيدِ... ثُمَّ نَصعَدُ في عُرسِ بَيْدَرٍ تُزَفُّ سَنابِلُهُ لمنجلِ الحَصَّادِ...

نَختَصِرُ طَريقَ العَوْدَةِ إلى بَيتِنا على التَّلةِ المقابِلَةِ، عَصْرَ مَساءٍ على موَّالٍ يهزُّهُ صَوتُ جدِّي السَّاحِلِيّ الحنون...

عبد الإله؛ عيناك... وهما تقرآن ما أكتب... بيت جبليّ صغير... يهرب فيّ الولد إليه من الحرّ والدَّرس وجيران السَّاحل. أهرع إليهما، تسرحان بين الكلمات على حفافي الجرح، حديث قصب الوجع يُنبِتُ ناياتٍ ساكِتةً على ألف بحَّة صبا فَتُبَلْسِمَان وتضمِّدان...

أكتبُ وأنا أتصوَّرُ عينَيك والكلمات تقفز الواحدة بعد الأخرى، لترتمي في أفياءِ الهُدُبِ، حيث رائحة حبقٍ وزعتر ونعناع وتراب، والجدَّة تريحني من بعيد كقِطعَةِ سُكَّرٍ، أو ثمرةِ أوَّلِ موسم، أو خبزةِ صاجٍ ساخنة تحرق ولا تخفّف الجوع...

ولا مرَّة من قبل، حتَّى وفي أحلَكِ الظُّروفِ، كنتُ بحاجةٍ إلى أن أحكِيَ لك كحاجَتي اليوم... إنِّي أحاوِلُ أن أصفوَ، ولو مِنْ خِلالِ صَمْتِي قُدَّامَ صَفحَةٍ أكتبُها لك...

يا صديقي؛ لقد جَعَلْتَنِي نهائيّاً، تلك هي لذَّة قراءتك. أرتشف منها دوماً، وتفعمها دوماً حياة نديَّة. لن أنسى **رائحة المكان، وقد سافر معي طويلاً. أقرأ لأختصر الطَّريق الطَّويل: باب البيان، وباب الكلام، وباب الصَّدى، وباب الشّعر، وصولاً إلى بابها، وعلى ورق متبادل نلتقي لنضيء عتمة اللَّيل.**

تضع أمامنا كلَّ قطوف كرومك العذبة، كلَّ حصاد حياتك وحناياها.

النُّجوم تتلامح ساهرةً في ليل المدن البعيدة، أدع كلَّ شيء وأتهيَّأ لكتابك.

قدرتك على خلق الكلمة جعلتني أتفتَّح على ذلك

السِّرّ الوسيع، مثل برعم الغاب الَّذي يتفتّح عند منتصف اللَّيل.

نشعر بالحبّ، نردّد قصصاً، نشاهد أحلاماً، نشتهي أن يكون العالم أجمل.

الخوف أسطورة تكبر في حقل الفراغ الكبير، ولكن الشَّهوة تستأنف جمالَها عند منحدر العمر.

لا مبرّر بعد اليوم أن تكتب شعراً وتخفيه. **ليليَّات** وفَّرت لنا هامش حرِّيَّة، تعويضاً مجازيّاً عن عجزنا عن تغيير الواقع، وتشدُّنا إلى لغة أعلى من الشُّروط الَّتي تقيِّدنا وتعرقل الانسجامَ مع وجودِنا الإنسانيّ، وقد تساعدنا على فهمِ الذَّات بتحريرها مِمَّا يُعيق تحليقَها الحرّ في فضاء بلا ضفاف.

إنَّ استيعاب الكتابة لقوَّة الحياة فينا، هو فعلٌ إبداعيٌّ مقاوم، كوفيَّةٌ تتقِن شهوتَها الأثيرةَ في صناعة الأبطالِ ينحدرون إلى الوادي.

يذهبون إلى هدف يعرفونه، يذهبون إلى غد أفضل. . .

لقد استدرجَتْني ليليَّاتُك، كما كان يستدرجني البُزُقُ إلى خيام النَّوَر تحت جسر الدَّجاج. . .

أطيع الصَّوت وأركض باتِّجاهه على طريق البحر: مصدر الإيقاع الأوَّل... أذهب لأشارك الغجر ليلتهم، ولأرى «زينة» البدويَّة مصابة بحمَّى الرَّقص والإغواء... ترتدي العُري المتخفِّي في رشاقة الحركة، وكان على الخيال وحده أن يرى جمال العُرْي...

كانت ماهرةً في بعثِ الشَّهوة بسحرٍ يسطعُ من خصرٍ يَرْشَحُ بالملحِ والخدرِ على حبالِ الرِّيحِ... ألعب لجسدِها المدوِّي على طبلةٍ صارخةٍ... كانت «زينة» تلهمني وتُضْرِمُ حماستي...

أتطلَّع إلى عينَيْها العسليَّتَين، فتتأجَّج رقصاً... كيف يمكنني الصُّمود أمام اللَّون الأسمر والجمال المتلوِّي؟ عاشقاً أسقي غرامي كما ينبغي... وكان ضوءُ القمر يخترق أمواجَ البحر، ويضيء الصُّخورَ المسنَّنة...

أعترف لك، وأضع حلمي أمام مرآتِك، كي أُسِرّ لك بسرِّي في **رائحة المكان**...

لم أكتب مقدِّمةً لكتابٍ، وإن فعلتُ ذلك اليومَ فَلِكَي أوضّح بالكلمات الفارق الجميل بين ما أودُّ أن أقولَه عن **ليليَّات**، وبين ما يربطُنا من صداقة لذيذة.

كثيراً ما تفلت الكتابة عن سياق التَّفكير فيها وعن مشروعها الذِّهنيّ، ولا تخضع خضوعاً كاملاً لوضوح الفكر الَّذي يحرِّكها، وكأنَّها إذ تستقيل في صيرورتِها الذَّاتيَّة تستقلّ أيضاً عن مؤلِّفها...

فماذا سأفعل بما هو مطلوب منِّي؟ ألا وهو تقديم هذا المُنْجَز الممتزج بالحياة، والمتسع للإنسانيَّة كلِّها.

يأتي الكتاب بكامل سطوته كلسانٍ جميل في لغة الضَّاد... يتحرّك ويملأ الفضاءات... ما أحاول أن أكتبَه هو تعبير عن الارتباط الوثيق بين اللُّغة والصَّداقة، وشاهدٌ على ما فعله من تمرُّدٍ على الواقع، دفاعاً عن الوجود...

لقد وُلِدَتْ **ليليَّات** من أولى أسئلة الدَّهشة حين احتضنته الجدَّة، وحين تساءل ذلك الطِّفل عن سرّ وجودِهِ الأوَّل...

يكتبُ حياتَه كما عاشها وكما رآها... يدوّن أحلامَهُ بالحرِّيَّةِ... يكون كما يريد أن يكون، لا كما يريدون...

يعبّر عن سمائنا الإنسانيَّة وهمومِنا الفرديَّة، وهي ليست فرديَّة تماماً، مع سياق الصِّراع الطَّويل، يمتثل في **ليليَّاته** البُعد الإنسانيّ الذَّاتيّ من فعل المقاومة

الأدبيَّة، حتَّى ولو كانت ذكريات حبٍّ أو مطرٍ أو تأمّلِ وردةٍ أو إصغاءٍ إلى نداء الشَّهوة...

ينخطف بالحبّ وبالمرأة، بالكوفيَّة وبالوردة... يشعر بالقشعريرة من مَطْرةٍ أولى، من قبلة أولى. يذوق عذوبةَ قسوة الملح في الجسد، يخرج من الصّدفة إلى الوجود... يتعرّف على ذاته في حواره مع الآخر، يسلّح الزَّهرَ بالنَّدى ليضيء ليلَنا...

*

يسعدني أن أقدِّم إليكم **ليليَّات عبد الإله بلقزيز في كتاب يبحثُ عن الأدب في الحياة، وعن الحياة في الأدب. ولن أنسى تلفّت قلبي نحو صديقٍ ينثرُ الوردَ على ليلِنا...**

يدخل ومعه لغة الحياة الأولى: الحب، حيث لا لغة قبلها. يدخل ومعه أشياؤه الجميلة، حيث لا قبح في العالم. يدخل ومعه رياح كلمات الحياة والموت في فضاء مدهش، فضاء الأرض الَّتي أتى منها، ليدخل كطفلٍ أبديّ حضنَ أمومتها الدَّافئة، رافضاً قيودَها ووعورةَ العيش تارةً، ومتأمِّلاً عناصرَ جمالها الخالدة، فتنفذ ذاكرته إلى قلب الأرض العاشقة والمعشوقة، ليذكّرنا بالوجود والوحدة والألم

والفرح... هي حقّاً الانفعال الجوهريّ برغبة الحياة...

الموت لا يقدر على مصادرة حقّ الحبّ، مثلما يفترق العشّاق ليبقى الحبُّ... ربيع يتسلَّل من خيوط الشَّمس إلى هجعته، يقول بأنَّه اكتهل مبكراً، منذ غزاه الشَّيبُ في آخر العشرين...

وللخريف ورهبته، حيث يقترب بعد أن أصابه الصَّيف، والحياة رائعة، لحظة إشراق ندركها في آخر المساء أو في صباح اللَّيل...

عَشِقَ بيروتَ المدينة، وكتب فيها، ولها، فصولَ الإقامة والرَّحيل، وأفلتَ الموتُ مِن تأمُّلاته الغيبيَّة...

لقد أخذني عبد الإله بلقزيز إلى هناك... إلى رائحة الخريف... لقد كبرنا يا صديقي قبل أن ننتبه، لم يُسمح لنا بأن نكبر على مهل، غَافَلَنَا العمرُ، فوجدنا أنفسَنا وقد كبرنا...

ليليَّات بسيطة ما فتئت تهبني الشُّعورَ بالجدوى وفضيلة الوجود بذاته، كما منحتني **رائحة المكان** فيض الإحساس بالرُّوح الإنسانيَّة الخلّاقة، وطاقتها الَّتي لا تحدّ قيمة ومعنى.

شفيفٌ كتابُكَ كضوءٍ يَعْبُرُ الرُّوح، ويتركها بدهشتها مع أسئلة جديدة، تحاور عمقيّاً الأسئلةَ الَّتي تشغل وضعَنا.

هذا قدرُك يا صديقي: المضيّ نحو الحياةِ بيدين عاريتين إلّا من جمرة الحرِّيَّة. كاتباً وشاعراً، مناضلاً وثائراً، ولا أعني الثَّورة بمعناها السِّياسيّ الضَّيّق، بل الثَّورة على كلِّ بالٍ ومهترِئٍ في المجتمع.

أيُّها الشَّاعر الصَّديق؛ أجنحتُك عامرةٌ بالرَّغبة في التَّحليق، تُغْرِقُ نفسَكَ في الظِّلِّ العميقِ، في بهجةٍ يائسةٍ لتتلألأ الكلماتُ بأنوارها، لا تلوذ بالضِّفاف للاحتماء بها، ولكنَّك تنشر أشرعَتَكَ، متحدِّياً العبابَ الهائجَ.

لا تَكْتُبُ لكي تحصيَ أرباحَكَ أو تبكيَ خسائرَكَ... أفهمُ صوتَ نجومك وصمتَ أشجارك، وإنِّي لسعيد بكتابةِ هذه المقدِّمة عنكَ، ولكَ، وأنا أجوب آفاقاً بعيدة، أُقَلِّبُ المدنَ صفحةً صفحةً، وبذلك بلغتُ بابَكَ، من خلالِ نصِّكَ الجديد.

كانت الأيَّامُ تمضي، ولكنَّك انتظرتني أن أدفع بزورق مقدِّمتي، عبر البريد الإلكترونيّ، كلّا، ليس من أجل إصدارِكَ كتبتُ، ولكنَّ شذى نصِّكَ يشي

بسرِّه الشَّجيّ، فَتَّحَ البرعمَ بيسرٍ وبساطة، وأبدى الرَّغبة في الاعتراف الخافت بغموض الحبّ... أحبُّه دائماً غامضاً. يا شاعرَ الصَّمت الرَّقيق؛ أعرف بأنَّ الأيَّامَ عرقلت خطاكَ بغبارِها الخامِلِ، ولكن نَفَسها المتقطّع نزل عليك، جاعلاً أفكارَك معطَّرة... شكراً لبهجتِكَ الَّتي تسكن خلفَ حجاب النُّور، وسوف أظلّ في سفري الفيَّاض أتغذَّى بليليَّات أوراقك.

لبنان، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٢

التَّفْسِـرَة

I

آخرُ المساء أحمرٌ. لعلَّهُ برتقاليٌّ قانٍ إذا صوَّبْتَ الرؤيةَ قليلاً، وغَسَلْتَ العينين بندى القصيدة. لا شيء في آخر المساء الكئيب يغريك غير هلالِ الليل على بقايا يوم يتصرّم. في آخر المساء الكثيرُ ممّا يغريك، إنْ أنتَ أحسنتَ وداع الذي مضى، وصالحتَ فيك الذي يتألّم. أنت لا شيء في صهيل هذا الكون، غير ما تُحَبِّرهُ يداك في غفْلَةٍ منك ومن رتابة عاداتك، حين نداءُ الروح يخاطب الغميس فيكَ، ويتكلم. أنتَ عدمٌ معدومٌ في سِفْر الحياة يُدَوِّنه الفراغُ، وتتلوهُ عليك الكتب. أنت السُّحُبُ حين تركب هَوْدَجها ولا تُمْطر. وأنتَ تُجْبِر قلبَك المكلومَ على الحبّ، ومن دروس ماضيك أنتَ لا تتعلَّم. لكَ آخرُ المساء كلُّه جسراً كي تَعْبُر إلى بداية يومِك، لحظةَ تَنْسَدِل خيوطُ الليل على هباء النهار، وحين يفيض داخلُك على صمتك.

آخرُ المساء قمرٌ، يُطِل من خلف سحابةٍ شاردة،

ويُضيئه قمرٌ فيك لا تراهُ عينان. قمران في هذا الكون يسبحان؛ واحدٌ يرقد فيك، والثاني يسبح في أمان. وكطفلةٍ، تعبث بشَعر دُميتها، تُمْسِكه بالأصابع، وتتلو على قارئٍ مجهولٍ سيرتَه، وتترك الباقي للعيان. آخرُ المساء أوّلُ القمر، إذا أضربتِ الطبيعةُ عن شذوذها الجنونيّ، واحترمتْ عاداتِ البشر. أوُّل الليلِ ليْلٌ لا يتنازل عن سرِّهِ قبل أن ينضج فيه الذي يكْبر، خفيةً، عن عيون المتلصّصين على شهوتهِ. وليس لنزوتهِ من زمان للتجلّي غير ليلٍ طليقٍ من الزمان. وأنت العنوان الذي لا يُخْطِئُه ليلُك حين يُدَاهم خلوتَك المخملية في اللّامكان.

*

كَمْ من ليلٍ تَدَثَّر بالليل كي يكون أعتم، أو أبْكَمَ، ممّا يريدُ، وكي لا يفضحه وضوحُ الأشياء في همس عاشقيْن. كم من قَمَرَيْن تناجَيَا أو تنابزا بالبهاء بين ناظريْن لعاشقٍ في تبيُّنِ الفواصل تائهينْ. كم من جملتيْن تزاحمتا كي تبوحان بما تَبَطَّن. كم توطَّن من معنى خذلَتْهُ اللغة وفي النفس تشرَّدَ. كم من حزنٍ تمرَّدَ على شَرْطه فامتطى الفراغَ كي يتمدَّد في الهباء. وكم من مساء طال كي يسرق من الليل أوّلَهُ، وأوّلُ

الليل كلّه إذا لم يُخطئ المريدُ طريقَهُ. . . والطريقةَ. لكنَّ الحقيقةَ خرافةٌ لا يرويها أحدٌ من الخليقةِ، غيباً، وإنْ زَعَم. غير أنها في الليل تتجلى في جسد امرأةٍ جائعٍ للشّعر، وللقليل ممّا يشبع النّهم.

للَّيْلِ ليلُهُ، وليلاَهُ ولآلِئُهُ، وخاتمٌ يمهر الصمت ويُمْضي في العاشقين أحكامَهُ. والَّليْلُ لحظةُ الأبدية البيضاء، خليلُ الموتِ وكاتمُ سرّه، صولجان السلطان في ذروة مجده. الَّليلُ طيِّعٌ لِمَن يهديه نفسَه، وصَعْبٌ على مَن تَعَثَّر في حبّه. الليل وحدَهُ ملكٌ متوَّجٌ في المدى المفتوح، بعيدٌ من الإبهام، وقريبٌ من شعبه. هو لا يطيل الانتظار ليقول ما يبغي أن يقول، ولا يطلب من سكانه غير المثول بين يديْ روايتهِ. المرأةُ تَفْهَمُه أكثر، وتَخْطُب ودّه كي لا ينازعها عليه أحد. وللمرأة طريقتُها في ترويض الليل على إفشاء أسراره. لكن الليل يجحد، ويخفي هزيمته كي لا تفتضح هشاشةُ السواد الثاويَ في صمته.

*

انتبهتَ إلى الليل، مبكّراً، وأنتَ تفكّ لُغْز التغيُّر السريع في مزاج الطبيعة. تذوقتَ طعمه بين ذراعين مفتوحتين لجدَّةٍ تطيب الإقامةُ بين كلماتها. كنتَ تريدُه

أطول كي يمتد حبْلُ الحكاية اللذيذ. وكنتَ تريدُه أقصر إذا نام عنك الآخرون، وتناهبتِ الكوابيسُ رأسَك الصغير. تعشقُه وتخافُه، كالبحر الكبير يرسل أمواجه، ويحمل الخيال إلى آخر المستحيل. لم تفهم لِمَ ينام الناس باكراً كالدجاج، ويبدأون صباحهم مع صياح الديكة! لِمَ يستعجلون نهارهم وغبارهم، فيمضون إلى خرافات اليوميّ؟ لو تأخّروا في الرقاد قليلاً لَشَرِبوا من نبيد الليل جرعتين، ولكان النهار أجمل. أَمِنَ العدل اختصار الليل؟ فليقتسموا اليوم بالقسطاس حتى تصدّقهم وتؤدّي واجب الاحترام. وهذا الليل الشتويّ، الممتدّ فيك كرنين حروف الأبجدية في صوت المؤذّن، مَن يعلّقه على غصن الهوى ويغنّيه موّالاً؟ ولقد كان محالاً أن يفهموك ويَدَعُوك تَبْني، بمزاجك، عُشّ خيالك الطريّ في شتاء تشتهيه ويشتهي الليل.

سيّدُ الفصول الشتاءُ؛ الليلُ فيه أطول، وزيارة النهار قصيرةٌ، والضوءُ شاحبٌ، والشمس تضحك وتَعْبِس في خِمار. يَلِذّ لكَ الشتاءُ، كلُّ شيءٍ فيه يفتح نوافذ القلب على الهواء: القرفصاء أمام الكانون، التدفّؤ بالمجمرة، تذوُّق الكسل الصباحيّ، إطلاق الساقين للريح. في الشتاءِ، حِضن الجدَّةِ أدفأ،

والقرآن سريع الحفظ، ولك بعد ذلك أن تستريح حين ترتّل حكايات الليل على مسمعك. أنت البطل، وأنت المديح في جملتين تسألان الجدّةَ المزيد، وتُغَلِّقَان على الانتباه طريق الهروب.

يحيّرُك صمتُ الليل ويُرهِبك، لكنه عن فراغ اليديْن والعينين يعوِّضك؛ يُمَلّكك الدنيا ويتوِّجُك، ويُبْصرك الذي لا يُبْصِرُهُ سواك: فَرَساً تحمل فارسها إلى البعيد، ونَقْعُ حوافرها يطلق في الهواء بَخُور الرجولة، فراشةً تثقب سقفاً من الآجُرِّ، وتُرْسل في العينين شهوةَ التحليق، أيَّ شيءٍ في المدى لا يُرَى ولا يُسْمَع أو يُمْنَع من نزوات الطفولة. الليل وحدهُ، على التحقيق، يفيض جمالاً عن أناقة الحروف، ويشيّع اللغة إلى مهجعها كي ترتاح من عناء المستحيل. الليل أبْهى من صولجان جدّك، والليلُ أشهى من بقاياك في بيتِ شِعْرٍ متوحِّلٍ في بحر طويل.

*

في الليل طوَّرْتَ مواهبك، وبِتَّ تَعْرِف أصول اللعبة أكثر؛ يكفيك بعضُ وقتٍ وصمتٍ كي تَهَبَ الغموض وضوحَهُ الضروريّ، وكي تتفنَّن في طَرْد المتلبس كما تطردُ قريبَةُ الجارةِ الأرواحَ الشريرة. كلُّ

شيءٍ في الليل أوضحُ رغم حلكته الجهيرة؛ درسُ المعلّم، مأساة البطل في الحكاية، تلألؤُ النجمة، انكسار القصيدة على معنًى يضيع في قيلولة الظهيرة. لو عقدتَ صفقةً مع السؤال، الذي يكبر فيك خفيَةً، حتى آخر الليل لهزمْتَه، أو لَصَحِبْتَه إلى حيث تَكُونا نِدَّيْن. كلٌّ منكما يريدُ آخَرَهُ؛ أنتَ كي تتمرّن على إخراج البداهة من خصام الضدَّيْن، وهْوُ كي يدقّق في معدَّل الانتباه عند شعبه.

في الليل يعلو فيك الضجيجُ السريُّ، وأنت تستجوب شهود الماضي للإفادة بما كانْ، في زمن ولَّى ولم يترك غير الحِبْر شاهداً عليه. الليل مئذنةٌ للشكاية من عبثٍ مجهولِ السلالةِ، يصحبُك في الغرفة والحمام وبين الدفاتر، ويوقظ في السكون الجَمْر. الليلُ محكمةٌ للكتابة، وأنت موزَّع بين لائحة الاتهام والقاضي، وقرينةُ البراءةِ تائهةٌ بين الشعر والنثر. وتجرِّب أن تدقِّق في غامض الكلام، ولا يُسْعفُك الدليلُ. وتجرِّب أن تكون أنت الدليلَ، فتستعجل المؤجَّلَ، وتدعو الغياب إلى إقامةٍ مفتوحةٍ في ضيافة اللغة. لا بدَّ للبراءة من ضدِّها حتى تكون، كي يفوح منها عطرُ العُذْريةِ الخَبِيء. وضدُّها فيك يقيم، بين الأصابع يتسرَّب باحثاً عن طريدةٍ ضاعت

في الفيافي، أو بين القوافي. وتسلِّم أن الماضي أخرسٌ لا يتكلمُ، لكن الأحفاد يُعيرونه اللسان لئلّا يكون الشرفُ مصاباً بالعِيِّ، فَيُهْدَمُ. وتُعَلِّمُ نفسك ما تَعَلَّم الذين قبلك: أن تبني لأجدادك عرشاً فوق أسنَّةِ الحروف، وتَصُفَّ المديح لهم على طبقٍ من ورق. وكرائحة الحَبَق، في صباحٍ صحْوٍ، يداهمُك الماضي ويملأ فراغات صدْرٍ تركتْها السجائرُ هبةً لَكْ، كي تُعَمِّرها بما شاء؛ بالحبِّ إن أردْتَ، أو بما ملكتْ يمينُك من الكلام.

كنتَ لا تَأْبَهُ لما سوف يمضي سريعاً، ويمشي على جثمان أَمْسِك. كنتُ تلهو بلعبة النسيان، وتقلِّب الكلام على أَلِفِ المضارِع، وسينِ غدٍ توشِك أن تَرْمُقَه. ولم تنتبه، إلّا متأخراً، لقدرة الموتى على القيامة، والإقامة، وترجيع صدى أجراسٍ قديمةٍ قرعوها. وبَحَثْتَ عن السلامة من رتابة التاريخ وكلْكَلِهِ، وضِقْتَ بالصدى يتردد في أرجاء الذاكرة. أَأَنْتَ تخشى الزمان فيك، أم تبغِي صُنع زمانك؟ موزَّعاً بين الشهوتيْن كنتَ يوماً، ثم سلَّمْتَ بأحكام الصدفة، وبقدرة شريعةِ المعنى على حمْل الأشياء على الأسماء. لو خيّروك، لاخْتَرْتَ غَدَكَ وأعْرَضْتَ عن الحفْر في طبقات الأمسْ، لكنك مصابٌ بالليل؛

والليْلُ لا يطيب بغير عِشْرَة القدامى. . . والهمس.

لا بياضَ في الليل كي يفضح حُلْكَتَه، لكن الماضي يدلُّ عليه. هل زارك الماضي، يوماً، في أطراف النهار؟ هل أغواك بالإصغاء إلى الوصايا القديمةِ لمملكةٍ أخطأت طريقَها إلى الأبدية؟ ليس في الضوء مكانٌ للحنينِ، وللأنينِ، أو لرياضة الذاكرة على اختصار السنين: في حكمةٍ سريعةٍ كبارقةِ سحابةٍ كاذبة، كنداءٍ وهميّ تُلقيه عليك امرأةٌ تختال في مشيةٍ جاذبة. الماضي لِلَّيْلِ وحدهُ، وللنهار النسيانُ، فانْظُر أيُّهما لنفسك أقربُ إن كان لا يتّسع فيك الضدّان. لستَ فارسيّاً قديماً لِيُجنّدك الجدلُ بين الظلمة والنور في حربه، ولا أنتَ من رعيّة الكنيستيْن كي تجادل في الطبيعتيْن؛ أنت من شَعْب القوافي، في الفيافي، ومن أواخر آذارَ المعتدل. تَهَبُ الذي لديك ولا تَمْتَثِلُ لِمَا يشاء الزمان المرتحِلُ. الأسماءُ فيكَ باقيةٌ ما بقيتْ/ رسومُها وليس يبقى غيرُ ما يَصِلُ. كُن جدليّاً كالطبيعة حتى تَأْلَف معنى القمر، والنهارُ يسكن لغير الضوء فيك. كُن جاهزاً للفريضتيْن، ولا تتحزّبْ للحقيقة الواحدة؛ ليس في النهار غموضٌ واضحٌ، ولا في الليل ضوءٌ تبدَّدَ في الغمام، أو في الكلام، أو في ظلامٍ ينسدل. كُن كالشجَرْ؛ يتشبع بالوجبتيْن، ويُرْسل

في القاع الجذور، وفي السامق يُرسِلُ أغصاناً فوضوية، ولهُ وحدهُ أن يحيا، وأن يموت، واقفاً. كنْ طافحاً بحبٍّ يزيد عن حدِّكَ والحاجة، واطلبِ المزيد؛ ففي الليل متَّسَعٌ للسخاء، وللكثير من النَّثر العاطفي، وإن كنتَ لا تريد.

*

آخرُ المساءِ أحمرٌ. لعلَّه برتقاليٌّ قانٍ إذا صوَّبْتَ الرؤيةَ قليلاً، وغسلْتَ العينين بندى القصيدة. ولا شيء في آخر المساء يضنيك غير أن ليلاً تستقبله يفِرُّ منك سريعاً ويمضي، معك، إلى نومه.

II

للبدايةِ بدايةٌ؛ لم يبدأ شيءٌ حتى ينتهي. نحن في لحظة البياض المُحَايدِ، حيث يستوي الوجود والعدم. وأصعبُ البدايةِ ما لم يبدأ في الخاطر فكرةً، أو جمرةً، أو خمرةً لم تتخمّر. عليك أن تسلّم بإيقاع الطبيعة، ومزاجها المتقلّب، لكي تتعلّم آداب الوجود. لا حدود لما تُعِيدُ من السؤال عن الحدود بين الطبيعتين، منذ أن قذفتْ بك الصدفةُ، ونزوةُ والدٍ لم تَرَهُ، ولا تعرف إن كنتَ جِئْتَهُ من حيث لا يُريد. للطبيعة فلسفتُها، ولكَ أن تبحث عن الأمان من

قسوتها إن اشْطَطَّت في فرض النواميس. القواميس جاهزةٌ لمدِّك بما تشاء إن أنت عثرتَ، في الالتباس، على المعنى وعلى طريقٍ يأخذكَ إلى البداية، أو إلى أوَّلها. لكنّ اللغة ليست منطقةً محايدةً بين اللفظِ والمعنى، ولا بدَّ لنشرك من صلحٍ بين الأرومتين حتى يكون.

البدايةُ امرأةٌ عَنودٌ؛ عليك تتعصَّى وتَمْنَع نفسها من إجابةِ الطلب. لا بدَّ، إذن، من بعض الغزل لترويض العنت على إجازةِ المُقْفَل، مثلما فَعَل الشعراءُ في الماضي، ولا بدَّ من المجاز لتطرية نداء الشهوة المُرْسَل في بريدِ السرّية الحميميّ. كلّما بدأتَ، أعَدْتَ وبحثْتَ عن البداية الضائعة في سراديب المستحيل. كأنك سيزيف يلهو بلعبة الصخرةِ، أو كأنك طفل يحبو ويتعلم الخَطْوَ لأول مرّةٍ. ولأول مرّةٍ تعرف أن البدايةَ هي النهايةُ إنْ أنتَ اهتديْتَ إلى إدراك الفارق بين المطر والغيمة، أو بين الحزن والدمعة. ولأوّل مرَّةٍ تعرف أنّ الاشتباك البلاغيَّ بين الصورتيْن قابلٌ للتسوية بمعادلةٍ جدلية؛ كأن تتخيَّل أن صرخةَ الميلاد إعلانٌ مبكّر لشهقة الموت، وأن الأخضر أصفرٌ مؤجَّل، وأنِ فعل المضارع عابر في تاريخ المعجم ولا يذكُرُهُ أحدٌ إلّا في صيغة الماضي.

الأزلُ بدايةُ ماضٍ لا تبدأ من بدايةٍ، وللحاضرِ غدٌ قد يمتدّ طويلاً، وللزمان أجَلُ. وأنتَ كالوردةِ تذْبلُ، لا تسألُ أمِنَ العدْل أنْ غِيضَ الماءُ فيك، وعن ربيعَك انصرم الندى الليليُّ، وانقطع الأملُ. سلّمْتَ بما سلّم به من زاروا المستحيل قَبْلَكَ، وألِفْتَ عاداتك في إنفاق الوقت على ما قبل الموتِ. وكنتُ تقول: تكفي المسافة بين الدخول والخروج لتأسيس مملكةٍ من وهم جميلٍ لا يتكرَّر. لا بأس من النسيان حتى يطيب المقام بين قوسين يفتحهما الزمن حين يخلد إلى قيلولته. للبداية بدايةٌ ونهايةٌ؛ لك وحدك، ولأهلك، لا يشعر بها الزمنُ. وعليك أن تعرف كيف تقتنص البرهة التي تقيم بينهما، كما تقيم رعشةُ الذروة بين الشَّبَق والعرق. إنْ تأخَّرْتَ، خسِرتَ الذي ضَاع منك في زحمة النسيان، وهل يتبقّى من رصيد الخسارة إلّا الشَّجنُ؟!.

الأزلُ بدايةُ اللانهائيّ في جملةٍ فلسفية، أو لاهوتية، غيرِ ذات موضوع إلّا المجرَّد. وأنتَ المشرَّد بين صرخةِ الميلاد وشهقة الوداع تبحث عن معنًى للحسّيِّ ممكنِ الجِوار؛ فالمكان يتسع، حتى الآن، لما تتخيل في سباحةِ ذهنٍ يُبْحِر في البعيد، ولا يلتفت إلى أثاث النفس الخارجيْ. وحدها المِرآة تنبّهك إلى

خارجٍ تُهْمِله، وتُعلِّمك واقعيةً جارحةً؛ كأن تغيِّر قميصاً حَطَّ على جسمك منذ يومين، ونسيتَ موعد نومه في الدولاب، أو أن تُكْمل كتابةَ رسالةٍ لصديق بدأتَها، قبل عام، وأهمَلْتَ التَّتِمة. ناجحةٌ هي البدايةُ حين تبدأ من مكانٍ مفاجِئ، فتأخذك إلى تعبيد الطريق لكي تمضي إلى غايةٍ تحدّدها هي. وحين تتدخّل، أنتَ حين تتدخل، تَفْشل المحاولةُ، وتُقْتَل في المهد بدايةٌ أخطأتْ موعدها مع الممكن. لم يزلِ الأزلُ أوَّل الأوَّلْ، لكنه هكذا في المجرَّد إنْ لَمْ يَمْسَسْهُ أملٌ غامض في الهبوط من العلياءِ إلى أسفل.

*

بدأتَ صغيراً ولم تَكْبر؛ لا يكفي الفطامُ عن الرضاعة والوقوفُ على القدميْن، والكلامُ، واحتساسُ المحيط، كي تودّعَك البدايةُ إلى ما بعدها. فليس بعد البداية غيرُ ذاتها. هي كالنقطة، في عُرْفِ أُقليديٍّ حكيم، أوّلٌ وآخرٌ. لا امتداد لها سوى ما ملكتْ يمينُها من الضروريّ. يَنتهي الأول في أوّله، وعلى الحسّيِّ ينتصرُ التماهي بين زمنين في زمنٍ واحد. قد يتأخّر إدراكُ التطابق وانطباقُ الحدّيْن، حين يَجْلو وَهْمُ الحياة على أعتاب الفَناء؛ فقد يرفع الموتُ الغشاوةَ

عن قلب لا يعشق غير ما يريد، ولا يرى في الأفق إلّا نهاياتٍ موجّلةً. لكنك مولعٌ باقتناص قيلولة الزمن، واختراع المستحيل بالكلمات، أو برسومٍ تختلسها فكرة الخلود من الوجود.

يبدأ يومُك من يَوْمِك، من نقطةٍ ما في المجهولِ لا تَعْلَمُه. ومن فرط بداهته، لا تسأل عمّا إذا كان الزمن موجةَ مدٍّ تنحسر؛ فالأشياء أمامك واضحةٌ، كالفصول في سيرة الطبيعة، والنواميسُ مرتَّبَةٌ على مقادير المطلق، وإلى غايتها تمضي كما يمضي المسافر إلى هدف يَنْظِرُهُ. ما عليك، إذن، إلّا أن تسلّم بأن الأشياء واضحةٌ وضوح اسمكَ، في سمعكَ، وأن الغموض مرهِقٌ للحواس، ولعبةُ قمارٍ ربّما قد يَبْقى لك فيه قليلٌ من نفسَك، وربّما تَخْسَرُهُ.

كلّما أَطَلْتَ الانتباهَ إلى المجهولِ، ركبتَ المتاهةَ كَمَن يركب البحر على صهوةِ موجةٍ لا عنان لها؛ فليس للمجهول عنوانٌ تُبْرِدُ له بريداً من هُجَاسِك، وليس بين ألفاظك ما يليق بمخاطبةٍ غيرِ متكافئةٍ من سائلٍ مضطربٍ لمجيبٍ يحترف الرماديّ. عليك، إذن، أن تأخُذَ حِذْرَكَ من التمادي في لعبة الجَمْرِ المطوَّق بالكبريت. وأنتَ، الذي تستميت من أجل هدنةٍ

عاطفية، لا تبالي إنْ كانت الوردةُ طلقةَ قلبٍ تصيب وتُدمي، فأنت لا تحمي فِنَائَك الخَلْفيَّ من غارات الندى والمرأةِ في ليلٍ سماويٍّ يَنْشُر لَيْلَهُ على جوعك. لم تتعَلّم بعدُ كيف تنظّم فوضى المشاعر على باب صدْرِك، ولا كيف تؤجِّل أمساً تَصرَّمَ، ولم تنتبه إليه، إلى يومك. تُدْمِنُ التشوُّف، كالباحث عن أمانٍ زائف من الواقعيِّ، وتُعْلِن في سرِّك ما يفضح المجهول في صمتك.

لو كنتَ أنتَ أنْتَ، ما أَنْهَيْتَ الذي لم تبدأ؛ الأفكارُ عاليةٌ، كالوحي يهبط على جبلٍ، وفي السفح منزلةٌ لم تَجِدْ لها بطلاً يَحْمِل عنها دوراً لم يتهَيَّأ. لو يَتَّسع المدى أكثر، لَهَرَّبْنا الحنينَ في القوافل إلى قلب الصحراء، لصَبَبْنَا على اللهيبِ عَسَلَ الحبيبِ، ورذاذ العيون المُتْعَبَة. لكنك تُضَيّق المكانَ عليك، والزمانُ فيك يَضِيق، فلا تترك للكلام غير حروف تُبَعْثِرها صدفةٌ حمقاء تَحْملها عاصفة مجرّبة.

لو بدأتَ من حيث ينبغي أن تبدأ، لأعفيْت البدايةَ من السؤال عن طقوسها، لأطلقتَ الريح في الريح، ولكان للنهايةِ لوحةٌ من رخام، وجُمْلتنا وداعٍ تليقُ بالمقام.

لو بدأتَ من اليمين، لأجَّلْتَ حتْفَك، ورضعتَ من الغمام حليب الأبدية.

ولو بدأتَ من اليسار، لكسبْتَ وقتك، وفرشت للقادمين غداً عشبَ الحرية.

ولو بدأتَ من تحتٍ، لكنتَ صنْو نفسك، تَنْبُتُ في قاعٍ كنبْتةٍ بريّة.

لكنّك لا تبدأ من حيث تكون البداية، وتخفي فوضاك في العويل على الحرية.

تعتذر لنفسك، كلما خلدت لنفسك، عن عدم الانتباه، بما يكفي، لنايات القيامة وهي تطلق في الأسفار صفير النهاية. تطيب لك الإقامة في البرزخ بين البداية وما بعدها، وتعتنق البقاء حيث أنت معلّقٌ بين الصدر والعجز في قصيدة لا قافية فيها إلا اللانهائيّ. كأنّك تحتكر تعريف الزمن، والقبض على بداهاتٍ تنتهك شريعة الخيال الحُرّ ممّا يروّضه على التواضُع في الطلب. ما أغْنَى الزمنَ عن خيالك المخمليّ وما كَسَبْ.

كلما اختصرتَ الانتباه إلى سهوِكَ، صار السَّهْوُ لهواً، وارتفع الضجيج في معنى الغياب. لا سحابٌ يَعْلُو فوق قيظ السؤال عن الغلط غير سحاب شكٍّ لا

يمطرُ يقيناً أو رذاذاً. فلا تعجَبْ كثيراً لِمَا يجعل الأشياء مُبْهَمَةً في كتابكَ إن قرأتَه، أو في جوابكَ إن حَبَكْتَهُ؛ ففي المسافة بين النص والخطاب متَّسَعٌ لالْتِبَاسِ الوضوح على قائله، ولغموض الندى في بحر الغمام.

ليس للختام تاريخُ ميلادٍ، وجنسٌ ومكانٌ لِتَنْحَتَهُ بإزميلٍ من نحاس، وتوزِّعَ على الناسِ سيرة ماضٍ لم يتريث في الرحيل إلى حتفه. الفضاءُ رماديٌّ أمام حروف الرثاء، وفوق مدافن التخليد الفرعونية، وبقايا الروح تعوي في خلاءٍ لن يَملأهُ غير صدًى مسكونٍ برائحةِ الغريب، وأطلال الأبجدية تبحث للختام عن أسمائه، فتُخْطِئُ العَدَّ، ولا تدري أيُّ وصفٍ يليق به؛ فهو الرمقُ الأخيرُ يتوحَّل في الحَلْق، وهو شهقة النهاية تختلط بصرخة الميلاد؛ هو الحِدَاد يَتَّشح بدمعتين ساخنتين ويُجَلِّلُهُ السّواد؛ هو الكلام الغامض في حضرة حقيقيةٍ واضحة؛ هو امرأةٌ تجنِّد الجنون للطبيعة وتُسْرِج عاصفةً من غزل؛ وهو الفشل حين لا يَفْشَل ولا يعاود المحاولة، وهو الختام من دون خَتْمٍ وأختام؛ هو البدايةُ تنتهي لتبدأ مرَّةً أخرى؛ هو الأسرى وقد فكّوا الأصفاد؛ هو الذي لا يلقي الزمنُ التحية على ضريحه لأن إقامتَهُ مؤقتة، وأحفادَهُ

يتكاثرون؛ هو جملة مؤنَّثة من فعلةِ فاعلةٍ مجهولة؛ وهو نهايةُ بدايةٍ لا يصدّقها المتصوفة، ولا يدوّنُها مؤرخون.

تبدأُ من حيث تنتهي، ولا تسلّم بالفواصل. يجادلُكَ الأصدقاءُ في نبذ السكون وتحريك الإعراب في خاتمة الكلام. تقول إنك بحرّيةِ النثر من القيود أشغف، وإن الشعر يصلح للغناء. القوافي كالصوافي في مِلْكِ الخليفة العباسي، فهي مما ليس لك، وأنت مجبول على الترحال في الفيافي، وقليلُ الإصغاء إلى إيقاع الإبل تَخِبّ في الصحراء. عشقتَ المقام في أوتار العود، حين ألِفْتَ الجَمَالَ المكبَّل في سجع المقامات، لكنك ضجرت من النظام والحُرّاس، وطلبتَ البعيد، وعثرتَ في المستحيلِ على القليلِ مما يكون. لا يهون عليك، الآن، أن تعلن العصيان على البدائيِّ في اللسان، ولكنك تخشى على القصيدة من نفسها إن سكنتْ إلى مثالها.

وتنتهي من حيث تبدأ، فتُلازِمُكَ البدايةُ كامرأةٍ يجمَعُك بها قِرانٌ كاثوليكي. لا شيء عندك، حينها، يعدو بدايَتَهُ إلّا صارَ غير ما هُو، واشتبهتْ عليك طبيعتُه؛ فبسملةُ الكلام، عندك، ختْمُهُ، وما تبقّى تفاصيلُ للزينةِ، أو لترويض الألفاظ على التمدُّد خارج

حدودها كعضلات مكبَّلةٍ بالنوم. تقول في نفسك: ماذا يضيف النموُّ إلى الكائن الحيّ سوى الدليل على أنه حيّ؟ وتقول: ماذا تكون الظهيرة غير أن الضوء وُلِدَ بعد الفجْر؟ وماذا يضيف الرَّعد إلى عجزِ صَمَمٍ عن استقبال بكائيةِ كمان تنشُر صوتَها من دون جَهْر؟ وماذا يزيد النهر على عاصفةٍ ترقِّصُ جبلاً وتُودِع فوقَه بيْضَها، وتؤوبُ إلى البحر؟ وماذا. . . ؟

وأنتَ حائرٌ في الأمْر، لا تدري ـ في التضارب ـ أيُّ الضِّدَّيْن أصوب، وكيف قيْظُ سؤالك يتشرب جواباً، أو رذاذاً؛ الأدلّةُ متكافئةٌ في المسألة، ولعلَّك وَلِعٌ بالفوارق المستحيلة بين بدايةٍ ونهايةٍ تقيمان على حدودٍ متداخلة.

III

على صخرةٍ، بين سنديانتين، ينكسر الضوء. تَفْتح الوريقات كُوّةً للشمس كي تهبط أكثر إلى قاع رحلتها. تراقب، من بعيد، حوارَ الطبيعة الجاري بين فوقٍ وتَحت، كأنك تقرأ في كتاب المطالعة كيف سيخْرُج الجنّيُّ من ليل الأميرةِ. للطبيعة فتنتُها، ولك الانبهارُ مفردةٌ في قاموس الاكتشاف. تتطلع من حولِكَ إلى ما حولَكَ من نثْرٍ إلهيّ. ما زلتَ صغيراً لتَعْرِف كيف

تسأل عن المُدْهش المترامي في الأطراف. سنديانتان وضوءٌ وصخرةٌ وعينان تراقبان، كأن المكان يَكْثُر في طفولتك، ومن حفيف دهشتكَ يُولَدُ الزمان.

على صخرةٍ، تشاكسُها رقصةُ غُصْنَيْن على إيقاع الريح، تجلسُ، وتُجيل الانبهار في مقتنَيات البصر. وتسأل: ماذا لو أن الشمس مالت قليلاً نحو اليمين ليكون المشهد أجمل؟. ماذا لو صار للصخرة جناحان؟ ماذا لو غرفْتَ أنت من الضوء ما تَسَعُ راحتاك لِتَصُبَّه على حجَرٍ جائع للدفء؟ وماذا لو لَكَ وُسْعٌ لتُزِحْزِحَ الصخرة، قليلاً، عن سجنها؟ تطلق الخيال من محبِسِهِ، وتمضي في لعبة البعيدِ بعيداً.

على صخرةٍ، بين سنديانتيْن، ينكسرُ الضوء عليك جَمْراً، وينحدر الظلُّ إلى آخرِ الانتظار المُشْمِس. يمضي الماء إلى الماء، ويترك خلفَه سلالةً تتعرَّى تحت الشمس، لتكبر. هناك تُفْرج الطبيعة عن مفاتنها جبلاً ونَهْراً، وتلقّنك أبجديةَ الجمال المدهِش، قبل أن تَعْبُر اللغةُ برزخ المعنى المبهمِ إلى العبارة، وتتَّسع المساحةُ للصمت المكتوب على ورقٍ، أو لجنونِ كلامٍ مُوحِش. وفي الطبيعة ما يطيب لَكْ، أو يَلِذُّ أن تحسبهُ متاعاً لا يُوهَبُ للآخرين. الفضاءُ الوسيعُ لكَ، ولأهلكَ؛ من مصرف الماء، على جانب الطريق

العام، حتى ظلال شجر الزيتون والمِشْمِش. وتَسيح في مملكتك الصغيرةِ لا تبالي بما يضيق به الخيالُ، وينثُرُهُ السؤال على جانبيْ طريقِ الإياب إلى الحمراء.

كلّ شيء في الحمراءِ يَبْهر، لكنّ الأخضرَ السحريَّ فيها أقلّ، رغم ما في حوض البيت من عزاء، وما في الخيال من متَّسعٍ لتقليب الألوان على جهات القلب. هناك عشِقْتَ الأوَّلَ في البصر، وأَلِفْتَهُ دهرًا، ولازَمَك الحنين إلى ذكرى لقاءٍ لا تذكُرُه لاختلاط الصُّور على رأسك الصغير. وهناك وُلِدْتَ يوماً، في مساء مباغت، بعد أن جَلَتِ العساكرُ بأربعين شهراً، وارتفع الأذانُ يُعْلِن حقّ الجياع إلى رحمة الله في الإفطار. ووُلِدْتَ هادئاً من دون ضجيج، لأن أمَّك لم تشأ أن تَحْرم رعيَّتها من نعمة السماح الإلهي. لكنك لم تكبر هادئاً مثلما خرجْتَ يوم مولدك، ولم تنثر على طريقك ورد السكون. كنت كالمجنون حين يُجَنّ، لكن الطبيعة علمتْك الإصغاء إلى حكمتها.

*

تُولَد المدينة من أهلها، وتُشْبِهُهُم. والأهْلُ أسفارٌ من الأخبار تقيم في مكانِ تَقَاطُعِ النازحين. المدينةُ هِبَةَ القوافل بعد ظَعْنٍ طويل تغريها واحةٌ وماءٌ بالبقاء.

وحينها لابدّ من حجَرٍ أو اسمنتٍ أو طينٍ، لينتصر الانتجاع على الرحيل. وأهل المدينة طيبون، مَرِحون، ولا يطلبون من متاع الدنيا كثيراً. وهُمْ قلّما هُمْ يغضبون، وإن فعلوا، ينسون سريعاً، ويصفحون. المدينة من أهلها تكون، وأنتَ من المدينة واحدٌ من أهلكَ، تتلقَّن التعاليم، وتحاكي الكبار في الكلام، وتسلكَ طريقتهم في الدعابة. . . والسّلام.

*

ليس في الحمراء أسرار، خارج أسوار الطرق الصوفية ؛ كل شيء فيها واضح كشمسها المتطرفة. وما فيها يكفيها لتكون مرآةً لداخلها المزركش بالكلام. في لسان أهلها لسعةٌ تشبه لسعة فلفل حادّ في اللعاب، إن جرَّبْتَ الملاسنة، ويغمُره كرمٌ فائضٌ في الوداعة لم يدوِّنْهُ كتاب. مَنْ يأتيها من خارجٍ ينسى مَنْبِتَهُ بعد يسيرِ ألفةٍ لا تطول؛ يتعلم في طرقاتها ما تقول الشمسُ للإسفلت عند انتصاف العام، وما يُرسل الجبلُ من زفيرٍ بياضه في أوّله. يتدرّب، بين حدّيْن حادَّين على طاعة المكان، قبل أن يجرّب كيف يميز الواقعية من الفكاهة في أقاليم اللسان.

المدينةُ أهلُها حين يَكُونونَها وتَكُونُهُم، ويَلْبَس

التشابه شكلَ بياضٍ أبدي، والحمراء وقاطنوها اسطقسات لِمَا لا يتجزأ، لفضاءٍ من بشرٍ وحَجَرٍ يُعْلن التماهي بين الطبيعيتين في واحد. لا مكان للمتعدِّد إلّا في الخيال الخِصب حين يجمح، وفي الحمراء ما يَجْرح الحقيقَة في حقيقتها، ويُدبِر عن المقيَّدِ. وللمتعدِّد مجازٌ شعريٌّ في الحارات، وفي دروب لا تُغْلق الأفقَ على أحدٍ، سُلَّمٌ لِتَسلُّق الحكاية حتى آخر سطرٍ مطرَّزٍ بحريرٍ يُبَلِّلُهُ غمام القيامة.

في الحمراء كثيرٌ من الغرابة في وضوحها الذي لا يُحَدّ، تعتلي دَرَج الفضول المؤدّي إلى التلصُّص على داخلها، فتكتشف أن الظاهر والباطن توأمان في البصر، وأن ما يَخْفى عليك هو من مَزيداتِ ظنٍّ يَسْكُنُك. أنتَ وحدك غامضٌ في نفسك وإن بَدَوْتَ عادياً، تُجِنُّ الذي يجيءَ في الكلام مجئ البَوْح كأنك تحمل سرّاً سماويّاً! وحين تُسْأل عما وراء السهوم في النظرة تفيء إلى الرَّوْغِ أو تَلُوذُ بالاعتذار عن عُسْر الكلام. وأنتَ أغربُ منها في الغرابة، وإن كنتَ منها صبيّاً يتدرَّج في الاكتشاف. وأنتَ لا تعرف إن كان ما بك خوفاً من المجهول، أو طريقةً بدائية في الاعتراف.

*

تكبر المدينة في مشْيَتِك، حين تخرُج من حدود الحيّ. تعاقر فِنَاءها الخارجيّ وراء السور، تحفظها شبراً شبراً كما تحفظ أسماء الجان المنثورة ليلاً على سَمْعك. تدرك، على التوّ، أن المكان أوْسعُ من صورته، وأصغر من فكرته. تبحث فيها عن أمكنة أخرى افتراضيةٍ، فلا تَجِدُ؛ فالأحياءُ عاديةٌ تماماً، وليس فيها ملعبٌ للخيال الطليق، ولا لفروسيةٍ تفتح المدى لنفسه. ولكلّ حيٍّ اسمُ سيّدِه يحتل مكان الوسط تحت قبة خضراء، يحيط بها فِنَاء، تتوسطهُ نافورة. ولكلِّ وليٍّ رعيَّةٌ من فقراء، ينْذرون له النذور، ويدورون حوله باحثين عن سلامٍ ضائعٍ في فُوَّهةِ ليالٍ لا يحصيها عددُ. وتبتعد من مكانٍ حفظت دروبه، وأحصيتَ عدد الدكاكين فيه، ودقَّقْتَ في وجوه أهله، باحثاً عن وجهة اكتشاف أخرى تملأ فراغات الخيال حين يجمح فيك، ويأتيك منها مَدَدُ.

تتشابه الأمكنة داخل السور، كأن الذي بناها واحدُ. في بعضها صَخبٌ كثير، وفي البعض منها غضبُ. وينسحب الهدوء إلى داخل المسجد هارباً من الزحمة والتعب، وطالباً هجعة الروح إلى صاحبها. كم كنتَ شغوفاً بارتياد المساجد، واكتشاف الفروق بين السجادات وأصوات الأئمة، ونوافير الماء في أبهائها.

وكم كنتَ ترقُب من يعود إلى الحيّ، في آخر المساء، حاملاً أخبار معارك غيره، كي تقيس المسافةَ بين الأذن والعيْن. فأنت لم تَرَ ما يرى الراحلون إلى ما وراء الحيّ؛ كلّ شيء عاديّ حيث كنت قبل يومٍ أو قليلٍ. وليس لغيرك من دليلٍ على صدق الرواية سوى أنكَ لم تكن شاهداً على الحكاية. تعلّمتَ من حينها، أن لا تصدّق... إلّا أخبار الجان...، لأنك لا تملك أن تراهم، وإن أقاموا معك في البيت... وفي الرأس.

حين تبتعد عن المدينة، في عطلة مدرسية، تصاب بالكآبة، وبنزقٍ عصبي أكبر من أعوامك العشر. تفقد الشهيةَ للطعامِ، وللكلام، وتدرِّبُ نفسَك على انتظارٍ يفوق أصابع اليدين. المدينةُ أهلُها، وأهلُكَ زملاؤك في المدرسة، وقططٌ في البيت تخاف عليها من الإهمال. لكن عَزاءَك في الغياب أن الصيف شديد الحرارة، وأن العقاربَ كالذباب حين تشم رائحة الطين المبلَّل في المساء.

الصيفُ مُؤذٍ بالصهد والحشرات، وضيق التنفّس، والخمول، وارتخاء العضلات. لكنه مريحٌ من يقْظةِ الصباح المبكّرة، ومن واجب الوقوف في الصفّ على باب القسم في المدرسة. كتابٌ في البيت، على

استلقاءٍ، يكون أجمل. وأجمل منه، في آخر الليل، وجبةُ الخرافة. هناك يتسع الخيال للمُحال، ويكبر عالمُك على المرئيِّ، والمرميِّ على قارعة الطريق.

كنتَ تسأل كثيراً عن كل شيء، وتزعج بأسئلتك المعلّم. وكنتَ تحمل السؤال عن رأسك، أخيراً، مُذ تعلمتَ كيف تبحث عن معنى مفردةٍ في «المُنْجِد». وقرَّرْتَ، وحدك، أنه لا يليق بك أن تسأل غيرَكَ عن حيرةٍ تنتابك من أشياء غامضةٍ، وعزمْتَ على فَلْقِ المبْهَم بكتابٍ أو كتابيْن، لكن النّظم يشدُّكَ إليه، فتخرج من التجربة صِفْرَ اليديْن.

مَن أوْلَعك بالأوزان، وأنت من الصِّغَر في ريعان؟ أَلِأَنَّ في القصيدة إيقاعَ أغنيةٍ مَرِحَا، أم لأنّ الكلمات فيها تتحرك راقصةً فترقِّصُ داخلاً منشرحَاً؟ لعلّه الغناء زفَّ لك القصيدةَ وأنت نائم. ولعلك تدري أن الشعر يروّض اللغة على التحليق بعيداً، فتنام ثانيةً على يقينٍ دائم.

*

تُخْطِئُ الطريقَ إلى الشعرِ، في طريقك إلى المدرسة؛ تترك الخيال في البيت، لينام قليلاً، ويُشفى من الأرق. تمشي بخفةٍ لا تناسب ساعات نومك،

كأنك محمول على ريح بجناحيْن. مازال في العينين بعضُ دبيب نومٍ، وطنينٌ في الأذنين. لكنك تمشي بخفَّةٍ إلى موعدٍ لم تضربه مع أحد، ولا مفرّ لك منه إلّا يوم الأحد. تمسي شاعراً، وتصبح واقعيّاً، وليس بين اللحظتين غير قليلٍ وقتٍ وَوَجبةٍ من النوم شحيحة. تدرِّب الخيال على الترجُّل عن صهوته، والتواضُع في طِلْبَتِهِ لئلّا يَمْرض أكثر.

يفيض عمرك عن الابتدائية فينقلوك إلى غيرها، لكنك لم تلمس فيها الفارق بين المعلّم والأستاذ؛ فالإثنان، معاً،على غير ما ظننتَ، أقلُّ جاذبيةً من الكتاب. تعاقر ليلك وشِعْرك، وتعتذر عن عدم الإصغاء إلى ما يُلقينَ ليلاً على مسمعك. فأنتَ بتَّ تقرف من تكرار حكايات الليل. لديك اليوم، ما يشدّك أكثر، ما يجعل الرأس يرخي عنانه ويُسْرج الخيْل. المدى واسعٌ أمام الرحلة، والشخوص من ذهبٍ ولَحْم، وأنت تصادفهم كلّ يومٍ على قارعةِ كتاب. تحفظ الأسماء والأحداث وتواريخ الميلاد، لأنك تهيّئ الذاكرة لاختبار الخصوبة، ولا تنسى أن تعيد على هزيع ليلك ما في المِزْوَدَة من المحفوظات.

الحيّ والمدرسة تياران يتجاذبان نهارَك، وللبيت ليْلٌ يحرُس عرشَه. الأصدقاءُ كثر، لكن أكثرهم

طارئون، وقليلٌ منهم يستحق خبزَكَ المدرسيَ الفائضَ عن حاجتك. والمغامرات قليلةٌ لخوفٍ فيك من الإقدام، لكن الأفلام تستهويك حين تستعرض آيات البطولة، وتحرِّك شيئاً من فروسيةٍ دفينة في نفسك. وليس لأهلك عليكِ سلطانٌ في أن تذهب إلى ملعبٍ أو سينما، مادام في البيت جدَّةٌ تحمي الصّبا ممّا يمنعه من التفتُّق، وتستعجلك لوداع الطفولة.

المدينة ملعبُك الخارجي، وحديقةُ خيالك، وشهوةٌ تدعوك إلى الترحُّل في المكان. لا مكان إلّا ما تشيِّدُهُ عيناك وتعمِّرهُ يداك في أحلام اليقْظة، في الصبح والعشية، حين تخلد الى نفسك؛ كم من حيٍّ أعَدْتَ تصميمه؛ ففتحتَ فيه دروباً مغلقة، ووسعتَ في مَا بين حائطيْ ممرّات ضيّقة، ونشرتَ حدائق في ساحات أهملها العابرون منها إلى مساكنهم. مدينتُك بَنَيْتَها بنفسك، مثلما تشتهي؛ رَصَفْتَهَا حجراً حجراً، أجريْت الينابيع فيها، فتَحْتَ الطرق، وأخرجْتَ سور المدينة عن السور ليدخل الهواء أكثر. وسَّعت حيّاً وضيَّقتَ آخر، ورفَعْتَ مئذنةً هنا، لتكون قامتُها بالأهل أجدر. ثم أكمَلْتَ الذي بدأتَ، فطليتها بالأحمر. ونظَّمتَ المرور لئلّا تختنق الريحُ في الزحمة، ويضيع حقُّ الراجلين. المدينةُ ما صنَعْتَ

لنفسك من صُوَرٍ تُؤنِسُ وحشة الفراغ، وتُبَدِّدُ الرتابة في المقلتيْن. المدينةُ ما ترك القدامى من آثار أقدامهم، وما دَوَّن الأحفاد عن البلاد في جملتين. المدينةُ أهلُها، وأنتَ منهم، فمَن سَيُغْنيك عنها، ومن سيُغْنيك عنهم؟

IV

ما أجمل الإيمان لولا صهيلُ الشك. يَسْكُن في النفس ليلٌ بهيم لا يكسر وحشتَه غيرُ بعضٍ سريعٍ من الطنين. ينمو فيك اليقينُ على مهلٍ تربّيه بالأذن، ثم بالعيْن وبالخيال تغذّيه، ويشحذهُ السابقون بما تركوا. لليقين جذورٌ تضرب في العميق كشجرةِ سرْوٍ أو بلّوط. قد تنحني للريح العصوف، وقد تنشرح، لكن لا مرئيَّها يضحك من عنفٍ لا يصيبُه ومن صورةٍ شعرية تقطعها قيلولةٌ طارئة.

على صخرة اليقين يرتاح موج السؤال؛ يتبدَّد، يعود إلى سؤاله معتذراً عن إساءة الظنّ، منتظراً فرصة أخرى للتحرُّش. وكلّ يقينٍ لا يبالي بسؤالٍ طائشٍ أخطأ الطريق إلى الفضول، وانتحل الشكّ اسماً ليرتجل ما يَكْبُرهُ من كلامٍ. اليقين أبلغُ من وضوح اسمه، وأعقد من عقدة المعنى في لغة الإشارة،

وأَدْعَى إلى العبارةِ في معرض الإبهام. اليقين ما لا تقولُ وإن زُفَّ في لغةٍ تَصُول في موكبِ زينةٍ أشدَّ اشتباهٍ من كتاب الصابئة.

اليقين شعورٌ أريستوقراطيٌّ، وأحياناً متعجرفٌ، لا يُبْصر جوارَهُ، ولا يَقْربُهُ حتى لا يتلوث. وهو يتلبث ما شاء له الزمانُ، ولا يأنف من عادة السكون حيث هو. وهو في الأعالي مقيمٌ، ونديمٌ لنفسه، في كونٍ ضيّق لا يدخله الهواء، لئلّا يفسد. كلما تذكّر وحدته تنهَّد، وقاومها بالسؤال عن الحكمة في النزول إلى الأسفل. اليقين أمثل حين يكتفي بذاته، وَلا يتعلق بغيره كي لا يَلْحَقَ النقصُ وجوده، فلا يكون، كما لا تكون الفكرةُ من الاسطقسات الأربع. واليقينُ في النصّ أقبح، إن كان على النصّ أن يطرد منه الحشرات، ويُشذِّب فيه فوضى المعاني في مبانٍ ناتئة.

اليقين شكٌّ مؤجَّلٌ، وامرأةٌ من لحمٍ ودمٍ وصورةٍ تبدِّد الخيالات، وتعيد للأنوثة أبجدياتِ الطبيعة، واليقين شريعةُ الباحثين عن الأمان من تعب الرحيل، ونصٌّ بمداد الروح مبلَّل. لكنّ ضجيج الشعراء يَسْكُنُه، ويُرهقُه المجاز. وهو، لهذا، لا يملك الامتياز على غيره؛ على الظَّنِّ، والاحتمال، والشكّ، والعدمية. وهو مثلها في النصيب من الإمكان وإن تفاوتَتِ

المراتب. وقد يكون أَطْوَلَهَا مقاماً إن أصَاب فريستَه في لحظة القابلية. ولكنه مهما يطول، لصولته حَدٌّ مسيَّجٌ؛ فهو من الشكّ يولَدُ، وهو إلى الشكِّ يَؤُول.

ما أطيب اليقين لولا ضجيج الشك في الجفون. يجيء الشكُّ مجيءَ الجنون؛ لا شيء يبقى واقفاً حين يَعْصِفُ، وتَرْكَبه رعْدة الحُمَّى ويَزْأَر. هو كالِمحْجَر حين تنتفض العين، أو كسابلةٍ تَقْطَع الفراغ نحو لا هدف، وتُقَطِّع الوقتَ في ثرثرات المساء. الشكُّ هباءٌ أو كالهباء؛ لا قلعة يَبْنيها، ولا فكرة يحميها، ولا يُبَلِّل وردةً من كبرياء. الشكُّ داءٌ ودواء؛ يصيب ويُشفي، وبين الوظيفتين فسحةٌ لاحتمال الخطأ. والشكّ ما بدأْ صغيراً في النفس كحبَّة سُمْسُمٍ، وما ثَنّى وثَلَّثَ كصدى أجراس كنيسةٍ لم تُطَأ.

*

زارك الشكُّ صغيراً؛ لم تكن قد جاوزتَ السادسة عشرة، ولا حلقْتَ ذقْنَك. كنتَ، فيما مضى من طفولةٍ، سريعةٍ، تسأل غيرك، وتنتظر الجوابَا. أصبحت، بعدها، تسأل نفسك، ولا تعرف إن كنت بسؤالك تأتي الصَّوابَا. كم من ليلةٍ فيها شَرُدْتَ وشُرِّدْتَ، واهتزَّ عرشُ اليقين فيك، وباتَ رأسُكَ في

العراءِ، بلا غطاء. كم مِنْ سكينةٍ ودَّعتَ وفقدْتَ، وضّجَّ الأسودُ الكُحْلِيُّ في بياضِ صدرك، وازدحمَ المتكلمون. يَهُونُ عليك الذي يهون، من عاديات يومك والمدرسة، لكنك قَلَّما تكون جاهزاً لتُفْصِح عمّا تزوّرُهُ العيون.

ما أمضّ عاصفةَ السؤال حين تهبّ على رأسٍ من قصب، وعلى ذقنٍ أُمْرُدٍ إلّا من بعضٍ قليلٍ من زَغَبْ. لا شيء في شِعْرِ العرب يحميك من رمادية الأشياء وهي تُغْلق عليك طريقَ التبيُّن، وتعرِّض جِلْدَ المعنى للشمس. الفضاء رحبٌ لحريةِ التأمُّلِ، وأنت ـ لحُسن حظّك ـ لا تستعجل؛ تأخذ وقتك كي تحرِّر المعنى ممّا يجنِّدهُ للبعيد المفارِق، وفي دَرْبٍ ضيِّقٍ بين ضِدَّين تُرْابِطُ، باحثاً عن لغةٍ تدافِع عن نفسها في حروب الالتباس.

يحلو لك، أحياناً، أن تستمتع بخدر النسيانِ، وأن تُسَلّف نفسَك وقتاً من فراغٍ أجوف؛ فلا تفكّرُ، أو تسألُ، أو تتأمّلُ، عساك تنظِّم فوضىً فيك تحْرن. لكنك، سريعاً، تحزن لوقتٍ أنْفَقْتَهُ خطأً في زمان اللازمان. تشْعُر بالخسارة قبل أن تخسر شيئاً، وقبل أن تتسرب الأشياء من بينِ يديكَ كماءٍ لم تُحْكِم عليه قبضتك الافتراضية. الخسارةُ ـ تَعَلَّمْتَ أن تقول ـ هي

انقلابُ الاحتمالِ على نِصْفِهِ الممكن، وتمنُّعُ الواقعيِّ على غزل الفكرةِ. الخسارةُ علقمٌ، أو حصرمٌ، وأنينُ ريح تعوي في خلاء رأسٍ تُدَحْرِجُها الفروسيةُ إلى حتفها. ولكن، ليس للخسارة ما تخسَرُهُ من دليلٍ عليها لا ينهمرُ.

النسيان وحده يدرِّبُ اليقين على التواضع. وحين بدأْتَ تكتشفه، أبْصَرْتَ نفسَك في المرايا متعدِدَ الملامح، وبدأْتَ تسأل نفسك أكثر، وتعاقر الكتب. أفضلُ طريقةٍ أن لا تحتفظ كثيراً بما تعلّمْتَه، حتى تتعلم أكثر. الشعر وحده يستحق البقاء، والغناء رفيقه الدائم. أمّا القرآن ففي مكانٍ من النفس لا تأتي عليه ريحٌ أو سُحُب. وما تبقّى متَّسَعٌ للترحال بحثاً عن ماءٍ يُطْفِئُ عطش السؤال إلى قرينهِ.

تقلَّبتَ كثيراً بين اتجاهات الكتاب، وكنتَ في أمرك ترتاب، وتسأل نفسك لماذا لا تَقِرُّ على شيء؟ لماذا تتعادل في رأسك الكفتان، فلا تَرْجَح منهما الواحدةُ برهةً حتى يثقُل ميزان الثانية؟ كنتَ مثل الآنية تحمل ما في جوفها بحياد. حسبتَ ذلكَ فيك نقصًا، ولم تُدْرِك نعمة الكثرةِ إلا حين أَفْقَرَتْك وأَقْفَرَتْك الواحدية، وأرسَلْتَ لِحْيَتَك الألمانية مدَّعِياً ملْكية التاريخ والنواميس حدساً وفَحْصًا. كم كنتَ

مسروراً بالقراءة في أوّل عهدك، كم صرتَ مغروراً بالوعظ الثوريّ وقيْدِك. دِينٌ جديدٌ، من الأرض، كان إلى صدركَ يتسرَّبْ، وانت لا تَعْلَمُ أنك تتهرَّب من ماضيك إلى ماضٍ يبعث فيك الحنين؛ فلقد كنتَ، عندها، لا تفهم أنك لا تستبدل اليقين إلا باليقين، أمّا الشكّ فيُقِيمُ بين اللحظتيْن إلى حين!

*

اليقينُ يَجُبُّ ما قبْلَه، والشكُّ يَجُبّ الإثنين، وأنتَ كنتَ تجرّبُ الثلاثةَ وتخسرُها في رمشة عيْن. ولقد كنتَ تَقْلَق حين ينتابك الشك، وينداح عنك الوضوح، ويضيع منك مَتَاعُ الكتب. وكنتَ تهيّئ نفسك لليلٍ يَطُول في تقليب الأسئلة، ولا تعرف إن كنت ستُفْلح في الخروج معافًى من حمًّى تربيع الدائرة؛ فالمسألة أكبر من إمكانِ هاربٍ في دهاليز الغموض، وأغْلَقُ عليك من أستارالحُجُب. وتدور في الفراغ، وتأوي إلى القدامى؛ باحثاً في رسومهم عمّا تجهل من مواد البناء، علَّكَ تعثر على ضالّةٍ ستصبح، بعد قليلٍ، حِمْلاً تنوءُ بهْ. وكنتَ، في لجّة الشك، تتمسك بالبقايا كي تدثّر بها عُرْيَك العدميّ، وتغطي شِمَالَ اطمئنانِك بعد انكشاف جَنُوبِهْ. طَمَرَتْك موجةُ

الشكّ فلم تُبْقِ للبداهة مقعداً ترتاح عليه العبارة، لكنك لم تَغْرق تماماً، ولم تشرب ماءَها المالح حد الاختناق. أَتَتْك يدٌ فانتَشَلَتْك من وعكة الغياب، ورمَتْ بك إلى أفقٍ يَلِدُ أُفُقاً من عدم. وقلتَ: هذا يكفي كي نبدأ من حيث انتهينا. والْتَهَيْنَا ـ أنتَ وأنا ـ بما شعَّ فينا من ضياءٍ بدَّدتْه جملةٌ اعتراضيةٌ في نصٍّ على نصٍّ سابقٍ جثَم. ولم نبدأ، مثلما تخيّلنا، من حيث انتهيْنا، لأنّ النّفسَ المنزوعةَ الأمَل، عَافَتِ الفشل.

أَيْنَع ذقنُك والْتَحَيْتَ، لكنك استحيتَ من سؤالٍ لا يُلْقَى في حضرة الحقيقة. هل من حديقةٍ أشدُّ اخضراراً من التاريخ والجدل؟ ما كان الأمل إلّا كلمةَ سِرٍّ يدوِّنُها عرقٌ كادح؛ لعلَّهُ طيّب كالمِسْك أو أكثر، ولعلّه أجدر من جِيدِ الحسناء والعينيْن بالغزل. ماذا ذُقْتَ، وماذا عَلِمْتَ أيها اللابث أمام هودجٍ تركبه الريح ولا يستريح على فكرةٍ؟ لو كان الشكُّ امرأةً، لسكنْتَ إليه، وتحمَّل الواحدُ منكما الآخر، لكنك تهربُ منه حين تعود إليه، ويتسع المدى ما بينكما للخصام المؤقت.

عبثٌ أن تنتظر ما لا يجيء إلّا بغتةً، كبريقٍ يَكْسر

حلْكة الليل، أو كوحْي يهبط من علياءٍ لا مرئيّ. كلّما وهبْتَ الانتظار انتظاراً، أَطَلْتَ المكوث على حافَّةِ الهاوية، وأشعلت في الترقُّب جوعاً للأبديّ. وما أنتَ والأبد، وأفكارُك بَدَد، كأوراق خريفٍ وزّعتْها الريح على قارعة السَّيْل. تُمْسي على فكرة، وعلى ثانية تُصْبح، ولكنك لا تُفْصح عمّا فيك يجيش من رغوةٍ. كأنك تستبدل ثيابك الداخلية من دون أن تتحسَّس الأسباب. كأنك تتّبع مألوفاً من جنس بداهةٍ على صهوة حقيقيةٍ تقف. وتقول ما تقولُ، وتُضْمِر ما يجول في نفسٍ عصفَتْ بها فلولُ السؤال عمَّا يَجب.

يَجب الكثير مِمّا يَجب؛ يَجب التسامحُ مع التغيّر، والرحمةُ مع الثابت، والغفران للخطيئة الأبدية. يجب التسليمُ بالفطرة، والتهليلُ للفكرة، ويجب إنضاج القابلية. للبَريَّة عشقُها الأبديُّ للحياة، ولك السؤال دليلٌ إليك في زحمة الأشياء، والأسماء، واللغات. ولكنك تقول، في ما تقول، ما أجمل اليقين لولا الشك في قَلْبٍ شيَّبَتْهُ حروب الواقعية.

V

وُلِدْتَ في الحمراء، والْتَحَيْتَ في البطحاء. وانْتَحَيْتَ ركناً، من بيت أهلك والرفاق، لتمارس

طقس الإصغاء للحرْف. كأنك وحدكَ تشعُرُ حين تكون وحدك، وحين الأشياءُ من حولك تزدحم والناس تَكْثُرُ. ما أجمل الكون بين يديك حين تبتعد، وحين تشيِّد للاعتكاف عُشّاً من أعواد الغياب. الفكرةُ كالسحاب لا تُمْطِر إلّا متى مالت إلى سوادٍ يليق بحمْلها السحريّ. لا تَذْكُر أنك خُنْتَ الذي عليه فُطِرْتَ من اعتزال الضجيج والكلام. وعندما تمشي في الزِّحام، تَسْكُنُ كونَك الداخليَّ وإن تردّدَ في اللسان صدى صوتِ الصخريّ.

اكتشفتَ الوحدة حين اكتشفتَ الامتلاء، وعِفْتَ المزيد. تَعَبَّأَتْ رأسُك بالأصوات والحكايات، وخزينِ قصيدٍ قديمٍ غرفْتَ منه بلا شرحٍ يضيء المعنى، ويُطلِق الروح في الكلمات. وأكثَرْتَ من الأصدقاء قبل الانتخاب، وقلتَ ما مِنْ شيءٍ يُعَاب سوى خيانةُ الطبيعةِ، وطمأنينة المعنى إلى لفظه المناسب. كنت تريد رَدَّ الكثير إلى الواحد حتى لا يتشتت الانتباه، وتَكْثُر الأخطاء. وهكذا مِلْت إلى اختصار المكان في البيت والغرفة، وغَلَّقت اللامرئيَّ من الأبواب، حتى تتهيأ الأسباب لتشعر أن المرءَ يخلق شَرْطَه.

في العباسية وظهر المهراز، كان كلّ شيء يجتاز مقداره، وأنتَ وحدك تُخَفِّض إيقاع الأشياء من

حَوْلِك، كي تروّضها على زمنٍ خاص لم تُشْرِك فيه أحداً معك. ولقد كان يكفيك القليلُ من الوقت، ليتسع الزمنُ فيك ويعلو. كتابٌ واحدٌ صهوةٌ تعتليها لترحل في أفق لا يُحَدُّ، جاريةٌ تشتريها كي تتسرَّى بها، وتروي لكَ ما لم تَرْوِهِ شهرزادُ. وأنت بين الجمع وحيدٌ، وإن ثرثرتَ وأسرفْتَ في الخروج من جلدك باللّغة. لكنك لا تكذب حين تقول ما تقول، وإن كان شرحُ نازلةِ طباعك يصْعُب، وقد يَطُولُ.

عقدتَ ميثاقاً مع الوحدة لم تَخُنْهُ. الطفلَ الذي كُنْتَهُ يوماً، وكان لا ينام وحده مخافةَ الجِنِّ، ابتُلِيَ بالوحدةِ، وابْتُلِيتْ به الوحدةُ كزبونٍ نادرٍ في القرن العشرين. صرتَ بين يديْها كالجنين، لا يتغذى إلّا من طاقتها الحيوية، وكبرتَ لا تَعْرف غيرها بعد جدَّتك. وتسكنك الوحدة أينما حلَلْت وارتَحَلْت كوشم في الجَسَدْ، وأنتَ لا أحدْ إلا أن تكون ـ وكثيراً ما تكون ـ في حشتك الأبدية.

لم تَخُن ميثاقك، لكنك ضِقْتَ به ذرعًا. تخرج إلى المقهى لِتَتَخَفَّفَ من وحدتك، لكنك تنتحي الركن القصيَّ وحيداً. تتحدث إلى الأصدقاء لتنسى وحدتك، لكن الكلامَ النفسيَّ يعلو في الداخل أكثر. تغنّي لتعطِّل الشعور بالوحدة، لكن صوتَك كالبكاء يطلع من

حلقك. تروي النكات لتؤجِّل الشعور بالوحدة. تناضل لتبرأ من الوحدة. تتزوّج لتروّض وحش الوحدة فيك. تتبرَّم بالضيوف لأنهم ينتهكون الخاصّ والحميميّ. تَرْفَع اليوميَّ إلى مقام النصّ وتُحيطه بالأستار. وأنت داخل الدار، أو في القطار، وحْدَك؛ تتأمّل الأفق المريميَّ وتختلق مجْدَك. وأنت، يا وحْدَك، أَضَعْتَ الحروف في تقاطع نصَّيْن من خوف الذاتِ على ما يجعلها اثنتيْن: واحدةٌ في المرآة تقرأها، والثانية تولدُ فيك قَبْلَك.

هزمَتْكَ الوحدة يا ابنَ أمّي؛ أمطرتْك بمائها ورمادها، وبلسانها أنْطقتكَ وأخرستْك، وحوَّلتْك عن خارج لا تعرفه إلّا مسْتَبْطَناً. وكنتَ، مستأمَناً على الحقيقة، تقول إنما الحقيقةُ ما علمتُ، فنسيتَ درسَكَ القديمَ عن استقلال الواقعيِّ عن الفكريّ وهجَرْتَ الماديةَ، وطلبتَ الصوفية، من حيث لا تدري. سجنْتَ أناكَ في أناك، ورأيْتَ ذاك منتهى الحرية. وكتبْتَ كثيراً أن الفكرة لا تنمو في الزِّحام، وأن الفلسفة لا تمشي مع قائلها وإن أصابه وحيٌ من عدمية.

هزمتْكَ الوحشةُ حين فتكتْ بغيرك القريب، فصحوْت على نفسك مفرَداً؛ لا امرأةٌ بقُربك، ولا حزبٌ يَطيب لك أن تصاحِبَهُ، ولا مريدون ينتظرون.

لك نفسُك، وحدها لك في فضاءٍ يَسْكُنُه الشك في وجودٍ يُجيرُك من وجودٍ آخر لا يضارِعُه السكون. نون النسوة يُغريك بفعل المخاطَب، وأنت المفتون بامرأةٍ خيالية تخرج، كفرسان الطفولة، من العدمْ، تحاول أن تؤنّثْ اللغة لترفع عن القصيدة حرجاً لا يليق بها. لكن القصيدة لا تخجل مما تُضْمِرُهُ من خوفٍ على الصورة الشعرية من قافيةٍ تُهْلِكُها حسناءُ طائشةُ الجمال. هكذا أنت؛ لا تستطيع أن تحميَ وحشتك إلّا بلغةٍ تحمي نفسها من امرأةٍ تتربصُ بالاعتكاف، وتُوقظُه من الاستغراق في ذاتهِ.

حين تستأذن وحدتك في أَوْلٍ إلى أَوَّلِكَ الجماعيِّ، تَصْحَبُك لئلّا تتشرَّب عادات الآخرين، ويَفْسد طَبْعُك. تتركها في جانبٍ خفيٍّ منك وتذهب، إلى قطيعك الحيويّ، وميزان رشدك، تذهب؛ باحثاً عن أناً لَسَتْهَا ولا تُشْبِهُك. تتشبَّع بالأصوات والأمزجة، تندسّ بين الحكايات والحَيَوَات، تختلف وتأتلف، ثم تَؤُوب أَوْبَة التائب إلى نفسه. لا سبيل إلى الاحتيال على الطبيعة والذكرى؛ فأنتَ ما أنت من قسمة المراتب والعلاقات.

*

قد بدأتَ تستحبّ الوحدة وتلوذ بها منذ داهمك القلم. الليلُ فيك، أينما حللتَ، والصمتُ، والنَّهمُ للحبر على بياضٍ بِكْرٍ، وقليلٌ من العَوْم في ماء السأم لا بدَّ للتأمُّل من عرشٍ يعتليه ليَفْصِلِ في أوّل الفجر، بين المتشابهات. والليل فيك يسكُن، ويبني على المدى الحُرِّ قلاعه في الجهات. كل شيءٍ يَلِذُّ في السكون؛ فكرةٌ تُفْلِت من شرنقة الفراغ وتتعرَّى، وجملةٌ عالقة بين مفردتين تُخلي سبيل صورةٍ غامضةِ المصير. كل معنًى يسير إلى وضوحه إنْ لم يعترضه صوتٌ طائش في آخر الليل، أو سقوطُ ذكرى سائبة كنَيْزِكٍ ضاع عن قطيعه في الفلك. ما أخْصَبَك حين تستبد بالمكان، وتوزّع الزمن بالتساوي بين الأجناس: شيءٌ للعقل، وشيء للأدب. والعربْ، كالأمازيغ، أهلُك؛ وفي دَمِك اجتمعتْ حضاراتٌ، وظَعَن رُحَّلٌ، وتصاهرتْ أَلْسُنٌ، وتقرَّتْ قوافلٌ، وكلٌّ من القسمةِ وما كَسَبْ. ألهذا السببْ يسكنك التاريخ، ويأسرك السَّرد؟ ويمرح في دمك الطرب. ألهذا تَهَبْ وقتَك لتنظيف القواميس من رَوْثِ العُجْمَةِ وبقايا الصور الثَّكْلَى؟ ما كان الشعرُ أحلى لولا أن تخلّى عنه الشعراء، وعنَّا، اليومَ، تَوَلّى.

غدُك، مثلُ يوملَك، مثلُ أَمْسِك؛ عَوْدٌ على بدءٍ لم

يبدأ بعد، وإنْ تناقَلَهُ الرواةُ على عادتهم في الجَمْع الفذّ بينما كان وما لم يكن. ولكنك لا تَضيق كثيراً بالرتابة؛ فلديك من الأناة ما يُصَيِّر الزمنَ وحشاً أليفاً، ويمنحه امتياز الإقامة حيث أنت. لو كنتَ خارجَك، لهزمك الوقتُ، وشرَّد وقتك. لكنك باطنيٌّ من أهل الحمراء؛ حيث لا تثريب على زمنٍ يَغِطُّ في الأفق، ولا يُحْسِن يَفْعَلُ غيرَ ما يشاء. إيقاعُ محيطك داخليٌّ، وحميميٌّ، تمسك عنانه بيديك، تَصْرِفُه إلى اليمين أو الشمال، تُبْطِئُه إن أردْتَ، وتطلق في دمه الخيال. لذلك تكتُب ما يَعِنُّ لك، بعيداً عن إيقاع غيرك والمؤسَّسة، ولا تقرأ ما تكتُب لئلا تُصاب بالخيبة ويَمْرَضَ فيك الحافز، ويتعصّى عليك الأتيال. ما أجمل المحال حين يُمْكِنُ في قصيدةٍ أو فيلم أو هلْوسة. ووحدك لا تراهُ جديراً بالكون خارج اللغة، فأنت تمنح اللغة حقّ تشكيل العالم وتعيش عالةً عليها، وأنت لا ترى نفسك فيها أكثر من جملةٍ اعتراضيةٍ، بلا أهمية. ولولا سكونُ الوحشةِ في الشغاف، ما عرفتَ طريقاً إلى أسرار الزراعة في لسان الضاد، ولا غنِمْتَ قليلاً من سقط القطاف.

واللغةُ والزمن توأمان إنْ أوْسَعْتَ لهما مساحةً في ملكوت الصمت، وأمسكتَ عن الكلام. الوحدةُ

مرتعهما الخصيب، والظلام يطلق فيهما جنون الشهية. متأخراً علمتَ أنك لم تُخْطِئ حين اعتكفتَ، وانكفأتَ، وأسلمتَ نفسك لإيقاعك الداخليّ يسيّرك على هواه، ويغريك بلعبة ترصيف حروف الأبجدية. خسرتَ الذي خسرتَ في منفاك الاختياري، ولكنك ما أضعت ما ترك لك الزمان من غنائمَ لغوية.

VI

النهارُ نصٌّ نثريٌّ مُرْسَلٌ لا سجع فيه ولا زُخْرُف. بلاغتُهُ بلاغُه، وبريدُهُ المركونُ على الرصيف كقمامةٍ لم تَجد من يَحْمِلها. يتّسع النهار لكلّ أنواع الشِّجار مع الضوء والضوضاء؛ بدايةُ عهده عادلةٌ، ويَشْطَطُ حين يتوسَّط الفَلَكْ، ويُرْسِل قسوتَه في المفاصل. النهار ابتلاءُ الأرض بما يرفع عطشها، ويُفرج عمّا فيها من زينةٍ. هو الوردةُ تتمطى، والكناريُّ يغرِّد، وهو الانتباه المشرَّدُ بين ليلتين فيه تزدحمان. النهارُ ما يقول تُرْجُمان الطبيعة حين ينقل النصّ من علياء الملكوت إلى أقاليم الفَانُوت. والنهار تابوتٌ يقيم فيه جثمانُ قصيدةٍ ستتناسخ مع أخرى في الليلْ؛ حين يتدفق في الخيال السَّيْلْ.

كلما حلَّ النهار، أصابك وخْزٌ من يَقْظَةٍ تؤجّلها

إلى غد ليرتوي خيالُك أكثر. النهارُ واقعيٌّ كضوئه، وسلطانٌ يُمضي شريعتَهُ على رعيته، والنهار أجْدَرُ بالمديح إن اعتدل طقسُه وأسرَعَ في الرحيل. لذلك طاب لك النهارُ في الشتاء ولَذّ، وصَحِبْتَهُ ـ ولو على مضضٍ ـ لتكُفَّ عنك غائلةَ الانتظار. يَحْدُث أن تكتشف بهاءَهُ لِمامًا، فتُصالحه، أو تنتزع له بعض المكان فيك. هكذا يبدو لك جديراً بالصداقة خارج المدينة، في الفضاء الأرحب المخْضَرّ؛ حيث الضوء شحيحٌ، والريحُ تهذِّب المنسدلَ عليك من علٍ وتُجَهِّزُ الظِّل. لكن حبْل الودّ فيك قصير، ويقْصُر أكثر كلّما فاض زمن النهار عن حدٍّ معتدل.

أنت في النهار واقعيٌّ، كرجْع وجهك في المرآة، وفي الليل رَئِيٌّ فيك يُلقي التحيةَ، ويَلْبَس ثوبَ شاعر. وأنتَ، كعهدكَ بك، لا تهاجرُ إلى مجهولٍ لم تفكَّ لغزه وصيَّةٌ كتبتْهَا يدٌ سحْرية. لا قضية في صباحك الثقيل غير أن تبدأ يَومَك كالآخرين، وأن تطرد عنك بقايا أمسٍ أمام غدهِ تَجَلَّد. فنجان قهوةٍ وجريدةٍ قد يطردان الحشرات من صحوك الهشّ، وقد يفتّحان أمام النهار نهارَهُ، ويودّعان دبيب الخمول في المفاصل. وللنهارِ اسمٌ، وفعْلٌ، وحروف جرٍّ تأخذه إلى حتْفٍ معنويّ. والانتظار فوضويّ إلى أن يركب

صهوة لغةٍ تَعْقِلُه، وتمنحه ملاذاً آمناً في ليلك.

أنت في النهار نثريٌّ، وفي الليل شاعر. لكنك تغامر بوزن الكفَّتين حين لا تُقْسِط. وليس من شيمة الشعراء أن يُفرطوا في الخياليِّ، ولا في الواقعيِّ أخلاقُ تاجرٍ يبدِّد ما في الداخل من حصةٍ للجنون. وأنتَ تخون الإثنين في قسمةٍ لا تَعْدِل، فتمْرَض فيك القابليةُ للتوازُن.

لا هدَفَ تقصده، حين تمشي، إلّا أن تمشي لتروِّض الجسد على لغة الصباح. وللصباح فرائضه، ولك أن تتقيَّد أو لا تتقيَّد بالتعاليم. تخرجُ قاصداً لا هَدَفَكْ، لكنك تتراجع عن لامبالاةٍ تكتشف، سريعاً، أنها من بقايا أرَقِ مزمنٍ بين دفَّتين. الضوء في العينين يطيِّر الرغبة في التحديق، فتتساقط في طريقك تفاصيلُ يرويها لك الآخرون غيباً، وأنت وحدك الشاهد الذي لم يرَ مَا بين ضفتين للطريق تمتلآن. اليومُ مهرجانٌ للتدافع من أجل كسرة خبزٍ، ربطةِ فجل، علبةِ سردين، فنجانِ قهوة، أو حسناء تعبث بالفحولة في خُيَلَاء. قاطرةٌ تفتح المصراعيْن للباحثين عن غدهم في ما وراء النصّ المُعَدّ لتطرية الزمن الجاف. اليومُ نصفُ يومٍ لك، والباقي توزّعه على غيابٍ سائلٍ بين

اليدين، مثل طريقٍ مهجورةٍ لا تقطعها قدمان. واليومُ يومان؛ واحدٌ للزِّحام البشريّ، والثاني تستعيده عينان مُغْمَضَتان.

كلما استغرقْتَ في التفاصيل، وزّعتْكَ الأيام على حروفها الأعجمية. في وسْعِك أن تَرْضى بقسمتك من عجين الوجود، والزُّهدِ في طلب المزيد. وفي وسعك أن تبدأ الحلم، من حيث أنهيْتَه أمس، وأن تعيد. أنت حُرٌّ في الواقعية إن زَيَّنْتَ ظفائرها بوَرْدٍ من خيال. ولك أن تقبل أو ترفض ما يقول النازحون إلى عصرك من زمنٍ وَلَّى، وتولَّى على مزاج الفقراء، وعلى لسانٍ واعظٍ أشدِّ من النِّصال. لك أن تَهْرُب من المكان المُعّدِّ لقيدك المخمليّ. ولك أن تفرشه بما تشاء من أدبٍ، أو من حطبٍ، لتوقد فيك وهجةً أطفأها النسيان. واليوم يومان إنْ أَحْسَنْتَ القسمةَ وأصبْتَ الطريق إلى دليلك الحيوي.

ليس في البياضٌ بياض إنْ أَبْصَرتَه عَرَضاً، في فجوةٍ بين رمشتيْن، حين تكون الألوان شكلاً آخر لحدْسِ اللامرئي. الأشياء ماثلةٌ أمامك، لكنك لا ترى بصفاءٍ نثْرَ الطبيعة في كتاب اليوميّ. تحتاج، إذن، إلى تغذية القلب بما يجعله أقل اشتباهاً في المباشر.

السياسةُ وحدها تدرِّبُ المثاليَّ فيك على الواقعيةِ، ونداءِ الطبيعة الملتهِب في الشارع والجسد. وما من أحدْ يعدو على أحدْ إن تشرَّب الناموس، وجال في البلدْ. وفي النهار متّسعٌ للرحيل إلى نهاياتٍ لا تنتهي بتعب الضوء. كلّ شيء في الطبيعة يتجدَّد؛ كالنثر في لسان العرب، كالبحر يتخفف في الصيف والمساءات، ثم ـ على حين غرّة ـ يأتيه المَدَد؛ من سحابٍ فاجأهُ الطَّلْق، أو من ترابٍ ينحني لموكب الماء، أو من شمسٍ تضيء للموج طريقه نحو شطٍّ لم يرهُ في الليل. نهارُك، مثلُ السَّيْلِ، غزيرٌ، ولكنك لائذٌ باليابسة، ومِنْ فوق ربْوةٍ تُطِل على خوفٍ يؤجِّلُ الإفصاحَ عن خوفه. تسأل نفسك، وقد تأبَّط السؤالُ السؤالَ: هل أنت جديرٌ بنثر الطبيعة، وفائضِ البلاغةِ في الزحام؟ وتعجز عن تأليف جملة تقول شيئاً، فتكتفي من الصمت الثقيل بالكلام.

يقول النهار للغرباء ما تقولُ الحرب لضحاياها: لم أكن أقصد أن أحصدكم إلى هذا الحدّ، لكن للجنون موعداً مع اللامعقول. ولقد كنتَ، دائماً، غريباً في النهار، وغريباً عليه. وليس من ودٍّ بينكما إلّا ما تفرضه المجاملة بين كائنين، من أرومتيْن ومزاجيْن، يتعايشان على مضضٍ، ويبني كلٌّ منهما

ضميرَه للمجهول. لستَ عنده أكثر من ناكرٍ للجميل يحتاجه كي تَدُلَّه الشمسُ على رعية القمر. وليس عندك أكثر من وقتٍ ضائعٍ بين منزليْن للروح ومنزلتيْن. وها أنتَ الآن تَعُدُّ الواحد والإثنين كي تطويَ مسافة الانتظارِ، كي ينصرم الوقُت المأهول عنك، لتختلس من اليوم رحيقه. وفي الطريق إلى سلامك الداخلي، لا بأس من حروب صغيرةٍ يحتاج إليها القلب كي يألف عادة النسيان، ويَغْفِر. منذ زمنٍ وأنت تقدِّر أنّ الأخطاء ضروريةٌ لتدليك تشنُّج الصواب. ولم تكن تهتاب من المجازفة، لأنّ القليل من العائد يَلِذُّ، ولك في مضارها منافع أخرى، كأن تتعلم دروس الكياسة في معرض طيش لا يطولُ. وتقولُ: الحياة مدرسةُ النقائضِ وجُرْعةُ ضوءٍ في قلبٍ يائسٍ من الأمل. وتكبر على الدرس، وتكتب على منوال من سبقوا: ما أضيق الواحديةَ لولا فسحة الجدل.

جَدَلٌ نهارُكَ، وسؤالاتُك جدلْ. لو أَبَحْتَ لنفسك ما أباحتِ الكتبُ، لكنتَ شاعراً يتقلّب في أقاليم الهِجاء، ويَلْعَن حظَّه والذكريات. لكنَّك تُصيبُ حين تخطئُ، وحين تداهمُكَ نسوةُ الشعرِ وأنت جائعٌ إلى السكينةِ. ما للقلب يصفّق إلى المدينة وترابُها يَعْلو فوق مئذنة الكلام؟ ما للسلام يَهْبط عن معدَّل

الغرائز ويُطْلق في الناس القَبَس؟وأنت كالحرس، ترابطُ على تخوم الهذيان كأنك سادِنٌ أعياهُ الشوقُ إلى الفرائض، وجَلَّدَهُ الزمنُ المديدُ أيها الطريدُ من ضوءٍ نهارٍ يَلْسَعُك، كن واقعيّاً لِيَلِذَّ لك المقامُ في زنزانات لغةٍ تَلُوذ، متعبَةً، بالأقدمين. كنُ نثريّاً كي يعتذر الشعر عن خطإٍ لم يرتكبه عمداً، ويتَّسع النصّ للغائبين.

صهيلُ الذاكرة

VII

قلتُ لها، في انسدال المغيب، وحروفي تخذِلني: «سَحَرْتِني بعينين تَغْرقان في الأزرق». ضحِكَتْ وقالت: «ما للسّحر طريقٌ إليك وأنت تلهو بِحِرْزٍ يُبْطل شعاع الأنوثة». لعلها بالشيب تذكّرني، ولعلّها، بمكرٍ تمتحن فيَّ معدّل الغَزَل. امرأة، مثل نساءٍ أخريات، من خيوطِ حريرِ نظرتها تغْزِل النداءَ الحيويّ، وترمي بالانتظار في الغياهب، أو تُوَلِّي، فتنتشر الحسرةُ فيك ساكنةً، كما ينتشر الرمل على شاطئٍ بحرٍ مهجور.

البحر عيناها، والضّفّتان تُطْبِقان على الأزرق، أو تفتحان له طريق التدفّق. تَسْتَكِنَان، فيتلألأ الماء، يحاور السماء، يشرب أزرقَها رويداً بلا عجل. وتتفجران موجاً أو جنوناً، حين يغضب الماءُ فيهما والرياح، فتُغْرقان من ينتظر. على الرموش يستلقي القلب ليأخذ حصّته من حمَّام الضوء الملتهِب، وبكُحْلِيّ اللون يتدثّر من لسعة ريح المساء. الهباءُ

مهنتُها حين تنْسَى، والعزاءُ أقحوانٌ على قبْر حبٍّ لم يتبادله اثنان. امرأةٌ واحدةٌ تكفي لتنشأ القصيدةُ من لا فكرةٍ، ولتفيض الصورةُ عن جملتها، وينتظم في فوضى البدايات ميزان. ليس للحبّ عنوان خارج حَوْمتها حيث تقيم، ويقيم في المعنى قليلٌ من شكلها المكبَّر في الوصف. امرأةٌ واحدةٌ تكفي لتقرأ الطبيعةُ أسرارها في المِرآة، وتَحْجُب عن نفسها ما تَجْحَدُه المفردات.

والمرأة متناقضاتٌ تختلف وتأتلف، كحوارٍ صعب بين القانون والقيتار في تخت شرقي. الصَّعبُ سَهْلٌ إليها والسهلُ صعبٌ، وبين يديْها تتحلق الأغنيات؛ هادئةً، أو صاخبةً، وينتحر الكلامُ المُعَدُّ للزخرفة. ما أشدَّ هدوءَها حين ينفجر صمتاً أو لا مبالاة؛ حين تصيرُ العينان لساناً والجفنانُ شفتيْن، حين تختصر المسافة بين الأضداد، فيرقد الرماديُّ سيِّداً في المقلتيْن. تسألها عن طقس القلب واتجاه الرياح لكنها لا تجيب وتعيد عليك السؤال، فتقول لك ـ من دون أن تقول ـ أنت أجدر بالجواب، لأنك المتهم في الحاليْن: حين تسألها، وحين تسألك. وكانت، حين يضيق بها منزِلُك، ويغشاها نزق مفاجئ، تخرج كي تشمَّ هواءً نقيّاً. هكذا تصف، بأدبٍ، ضِيقَ التنفس

ونقصَ الأوكسجين في عينيكَ والكلمات. تَصْفَح، لأنك تعلمتَ أن تصفح، وتجرّب أن تنسى كي يَنْحَفَ رأسُك قليلاً من شحوم الذكريات. لستَ بطلاً أسطورياً لتَخْرُج من بين أصابعك المعجزات، ولستَ غبيّاً، تماماً، ليجفَّ فيك ماء الكرامة. أنت، فقط، تطلُب السلامة من حادثة حبٍّ قاتلة، ومن خوفٍ على نفسك: من نفسك، ومنها.

منها يكون التكوين، وتتكوَّر الأرض. الماءُ من ينابيعها يجري، والضوءُ والهواء من ضحكتها يخرجان. يقول لها الشاعر: ما أجْمَلَك، وينْسى أن في الجملة عِيّاً لغويّاً. يصحّح ما سَهَا عنه القدامى في التعبير، ويُجْمِل ما أفرط فيه الأوَّلون حتى لا تتكاثر عليه المجازاتُ فَتَلْسَعَهُ، كما يتكاثر عسلُ النحل في القفير. كالأجير بين يديها يقف، ويرتِّل حبّاً قد تَعَافُه، وعليه أن لا يَيْأَسَ قبل طلوع فجْرِ صبوةٍ ستفاجِئُها غداً وتفاجئه، فَتَرْفَعُ عنه حرجَ الاعتذار منها عن شيءٍ ما في نَفْرته تَخَافُه. وحْمُها سيّءٌ، مثلُ عادتها الشهرية، ومثلُ صدٍّ يرْكَبُها، أحياناً، كمسٍّ من جنون. وخوفُها شهيٌّ بين ذراعيْن تَبْسُطان الأمان على فرائصَ أشعلها كابوسُ نومٍ مبكّر. لكنِ صمتَها مُضْجِر حين يُكْثِر في الصمت، ويرمي على شهوتك سترةً واقية.

حين تُضرب عنك امرأةٌ، تَعْجِز السياسةُ عما أخفق فيه رصيدُ الحبّ. لا تجرّب، حينها، أن تعاند، كي تعيد للكرامة كرامتَها؛ فالكرامةُ، هنا، اسمٌ ماكرٌ لفحولةٍ رسبت في امتحان الأداء. عليك فقط أن تمنحَ الغضبَ حصّته من الوقت كي ينحسر عن جسدٍ تلبَّسه خلسةً، وأفسد على العينين الصفاء. الدواء من جرثومة الداء؛ هكذا يقول الأطباء، وعليك أن تكون مثلهم في النازلة: أن تعالج الوقتَ بالوقتِ، وأن لا تَعْجِلَ، فتخسر، أكثر، من رصيدك الشحيح. كن حاذقاً، كالسائس، في ترويض العاصفة، بأن لا تعرّض نفسك للهبوب. وتصرَّف وكأن المعكّر صافٍ، والملبَّد أزرق. ولا تَغْرق في التأويل، فيصيبُك من ذلك مرضُ الشِّقاق مع النفس، وتداهمك الخطوب. وقد ينفد صبرُك، ويأتيك من الانتظار ضَجَرٌ، ويخبو فيك الجَلَدْ. ما عليك إلّا أن تتذكر، حينها، أن امرأةً تستحق منك ليلةً بيضاء يرتاح فيها الجَسَد.

VIII

من نافذةٍ، في منتصف الجدار، تُطِل عليها، وتُطِلّ عليك. تتخادعان، إذْ تتذاكيان على بعضكما باصطناع المصادفة. تُعَاوِدُ اختلاس النظرة من وراء

نظارتها السوداء، فتُخَمِّن أنك، أنت، المقصود. تَلُمُّ أشلاء شجاعتك المبعثرة وتردّ بالتحديق. لم تَعُد تهابُ أحداً قد يتلصَّص على نظرتين جائعتين إلى حوارٍ سريّ بين نافذتين تتقابلان. خيطُ الكهرباء يقطع ما بين البنايتين، ويقطع خطَّ الرؤية عليك. والشرفتان على خطٍّ مستقيم تقعان، وتشهدان على سرٍّ إلهيٍّ ينشأ، في هذه اللحظة، في صدريْن حامضين كحباتِ رمّانٍ مبكّرة. زاوية الرؤية أفضل إنِ انحنيت، ولا بأس من أن تنحني لامرأةٍ؛ فلهنّ وحدهن أن يُطَأْطَأَ رأسُ الفحولة طائعاً. تفتعل الجلوس كي تقع، هي، في مرمى العينين، تُدْرِكُ قصدك، فتحرّر وقفتَها من شِبَاكِك. تعاكسها وتعاكسك؛ أنت بعينين مصوَّبتين على «فريسةٍ» يسيل لها لُعَابُ القلب، وهي بجسدٍ يدافع نصفُه الأعلى المكشوفُ عن سرِّهِ من قنّاصٍ معاد. تلتقي العينان، أحياناً، فيشتعل في المكان مِلْحُ الكلام. وبعد شيء من التعب، ترتاحان قليلاً من لعبةٍ ينمو على ضفتيْها فائض الغمام، كما ينمو عشبُ فوضويٌّ على حافة وادي.

لو كنتَ شاعراً، لأرسلْتَ لها في القصيدة صورتَها في مرآةٍ أخرى تَرَى وتُرِي، وتُطِلّ عليها من علٍ، فترسم القسمات بحبّات اللوزِ، والسمسمِ، وفاكهةِ

اللسان. ولو كنتَ نحَّاتاً، لاستَعَرْتَ إزميلَك من القلب، لئلّا يَجْرَحَ صخرها المرمريّ، ويُدْمي أيقونةً يجلّلها ضوءٌ تسرَّب من زوايا اللّامكان. ولو كُنت ساحراً، لجنَّدْتَ لجناحيْها الريح، وأوْقَدْتَ في دمها قبَس الرجولة، وأعفيْتَ شجاعتها من التردّدِ. لكنك لستَ شاعراً، أو نحّاتاً، أو ساحراً، ولا أنت تملك أعصاب تاجرٍ تقلبَ في نصبِ الفخاخ والتودّد. ترمي بنظرتك إلى بعيدٍ قريبٍ وأنتَ تُمنّي النفسَ بهبَّةِ نسمةٍ تبدّد ما يعتلي الشرفة من غموض. وقد يَرْكبك، فجأةً، وهْمُ البطولةِ حين يُفْرج ثغرُها عن ابتسامةٍ، فتقطع جازماً أنها برسْمك، وأن أحداً من داخل بيتها بريءٌ من صبوتها المفاجئة.

يبدأ صباحُكَ باكراً، هذا الصباح، تُهَيِّء الوقت لِمَا يجعله وقتاً فائضاً عن الانتظار، وملائماً لإشعال الحرائق في السؤال، والمكوثِ قعوداً على جَمْرِ الاختبار. ليس للصَّبر مختبرٌ قياسيٌّ لِعَيار وزنك، والحُكْمِ على منسوب الرباطة في جأشك، لكن الصَّبر يروي عن آخرين صادفهم، فصادقَهم أو رافَقَهم إلى حتفهم. مثواك شرفتُك، وبعضُ زادٍ من كلامٍ زادَ عن حدِّ الحاجة فصار زُؤامًا. وليس لك ما تخسَرُه إن صَدَّتْكَ شرفةُ اليوم عن نظرةِ عتابٍ ترميها فتفتعلُ

الخصامَا؛ فلقد تلقي عليك الفجأةُ رذاذاً غيَر مُنْتَظَرٍ، ولقد يباغتُك آخرُ الصباح بما لم تَحْسَب من خبرٍ.

*

لم تحْسَب للمفاجأة حساباً حين داهمَتْ انتظارَكَ الحائرَ في أمسٍ قريب. نذرتَ يومَك لها، وقلت: اليوم جمْرٌ وغداً أمرُ. لم تقطع برأيٍ في كيف يكون الحوار بين جسديْن تَخَاطبا من بعيد. رسالة صغيرةٌ منك إليها تقول: «نلتقي غداً في الخامسة»، وأخرى منها مبهمة الجواب. تفاجئك بالمجيء بعد أن أخطأتَ الحساب، وكدتَ تنصرف خائباً إلى بيتك. تتواعدان على لقاءٍ قريب تختار هي موعده، بعد أن تختبر صبرك. يومان، ثلاثةٌ، أسبوع، وأنت في غرفة الانتظار؛ تُطِلّ على شرفةٍ خالية إلّا من خيالاتك، ومن مزهريتيْن تملآن فراغَ المكان. ولكنكما تلتقيان؛ بـ «الصدفة» تلتقيان، على الطرف القصيِّ من الشارعِ الخلفيّ، وتوزِّعان العتاب بينكما، بالتساوي، على الغياب.

نذرتَ يومك، أخيراً، لامرأةٍ ستقرأ بين دفتيْها درسَ الأنوثة، وتقيسَ الفارقَ في نفسك بين المادة والصورة. سيكون عليك أن تتقشف في العبارةِ لئلّا

تزدحم مفردات الحبّ في اللسان؛ فليس للبيان مكانٌ بين جسديْن يكتشفان ما بينهما من تفاهُمٍ على مفردات التخاطب، وتقليب ما تحت الرماد. تنتظر التي تأتي، وتعتذر من كلامٍ افتراضيٍّ لا يستقر على حالٍ يجيش بها فيْضُ التردُّدِ عن حدِّه. قد كنتَ مولعاً بالقياسِ، مُذْ تعلَّمْتَ أصول الفقه في نصٍّ مدرسيٍّ ذاتَ مساءٍ شَتَوِيّ. وصرتَ مخرومَ الرأس بلعبة الأصل والفرع وما بينهما من علّة. وكان الناس من غوايتك بعيدين، وسعيدين بما يملكون من نباهة الميزان، والفيصل بين الضارّ والنافع. لكنك لم تتعلم منهم دروس الطبيعةِ والبداهةِ حين تجتمعان. رأسكَ يافعٌ ونصوصيٌّ، وقلبُك جائعٌ إلى حبٍّ لا يعرف كيف يَشْهَدُهُ خارج اللغة. وأنت الآن على مقربةٍ من امرأةٍ لا تقيم في الكلمات، ولا معنًى للبلاغة في ترصيع خارِجِها بالمجازات. البلاغة في لغة الجسد، والاستعارةُ فيه قليلةٌ، والبديعُ بَلَدْ، وأنتَ لا أحَدْ إن لَمْ تُعِدِ البيانَ إلى نثره الواقعيّ، والمعاني إلى المباني، وتخُوضَ في مياه الأبجدية من غير مجدافٍ شعريٍّ ومَرْكبٍ من مقامات. كم من الوقت تحتاج لكي تتعلم أنك وحدكَ، في سيرتك، تتقمص دور الجاني والضحية.

وأنت، بين يديْها، الإثنان: المِقْدامُ والجبان،

القرضُ والسَّرد، القارئُ والمقروء؛ هكذا كنتَ ذلك اليوم. وخرجْتَ من الامتحان بأقل الخسائر: قُبْلتيْن طويلتين ويديْن تشتبكان. لم تأخذ من «الوقعة» كلَّ المَغْنَم، لكنك لم تفقد بريقَ الشجاعة في جبينك، وفي خاطرةٍ أجَّلْتَ البوْح بها إلى غدٍ آخر. عُدْتَ من الميدان نصفَ منتصرٍ، ونصف مهزوم، وعَزَّيْتَ نفسك بأن القسمةَ عادلةٌ بين متكافئين في التجربة. في المساء، يداهمُك طيفُها كالرَّئِيِّ، تقفز إلى الشرفة باحثاً عن دليله في الطرف المقابل، فتنتبه إلى أنّ أمْسَك يوشِك أن يتصرّم.

بين الشرفتين حوار صامت لم ينقطع، ورسولٌ من بريقٍ ينقُل ما في الخاطريْن. تُطِلّ عليها، وتُطِل عليك، في مواعيدَ شبهِ ثابتةٍ كجدولِ الحصصِ المدرسية. تقولان من بعيد ما لا تسمعان، لكنكما تفهمان أيّ منحنيات لا تؤدي إلى الهاوية، ولا تنبّه الجيران إلى تلبُّسٍ يَلْبَس رداء الصدفة. في الغيْمةِ متَّسعٌ لضحكة الصحراء، ولفروسيةِ الروح بين الجوانح. وفي دمْع السحابةِ ما يغري بالكتابة إليها والشكوى. كأنك تُبْطِئ إيقاع الحبّ عمداً كي ينضج أكثر، كما يبطئ أهلُ المدينة إيقاعَ الطبيخ على المجمرة. يكفيك منها، حتى الآن، ما أصبْتَ من

الجسد، والبقية تتركها لوقت آخر قد لا يتأخر.

IX

ليس للأوهامِ مواقيتُ معلومةٌ كالمطرِ، أو انبجاسِ النور من الظلمة، أو ارتفاع ضغطك الدموي بعد وجبةٍ من اللحم المقدَّد؛ فقد تأتي على عجلٍ، بلا إرهاصٍ، وقد تُسْرع في التلاشي كموجةٍ أصابها التعب. إذْ ليس من عَتَبٍ على عصْفِ ريحٍ عاتٍ يَعْوي في الفلاةِ، وأمام مقام الطبيعة لا يتأدّب. وليس من موعدٍ محدَّدٍ لجنونٍ لا يَعْقِلُه نظام. حتى الكلام قد يخرج عفواً وينتهك الحراسةَ، بعد أن يُعْيِيه التردُّدُ في أرجاء الخاطر. ولو جرَّبْتَ أن تَعْقِل الهواء بيديْك، لأدركْتَ أنك تلهو بالمحال وأنك تزنِّد الجمر بالماء. الأوهام سقْفُها السماء؛ فهي في المكان لا تُحَدّ، ولا تمكث طويلاً، ولا هي تُرَدُّ حين تغزو الخيال.

أوهامُك حباتُ رمْلٍ؛ على شاطئ التأمُّل راقدةٌ كما يرقد الشكّ في يقينٍ مؤقَّت. تستقر في الرأس مثلما يستقر الأوكسجين في الرئتين، وتضخُّ فيها دورتَها الدموية. تَحْمِلُها، حين تَحْمِلها، كقابليةٍ فُطِرْتَ عليها مُذْ وُلِدْتَ، ومَيَّزْتَ بين حروف الأبجدية. كأنكما صنوان، تُشْبهان الذي بينكما، وما تَرَكَ الزمانُ

من فائِضِ الوقت على أبطال أسطورةٍ من تاريخِ أهْلِكْ. كلُّ شيءٍ في فراغ النَّفس يُهْلِك إلّا ما يَمْلَؤُه الخيال، ويبني هَيْكَلَه في فجوةٍ بين احتماليْن. في العينيْن مساحةٌ من الرؤية تكفي لتبيُّن الرماديِّ في دفْتر الوجود؛ لحراسة المجاز من الحقيقة وشرطة المعنى، وتقليب الإمكان على حدود قيْدك.

لم تُسَلِّم بالمستحيل إلّا على كِبَرٍ وزحْفِ شيب؛ فأنت في الماضي لم تكن تستريب من قدرة الإمكان على الإمكان، ومن سلطان الهوى على السلطان. كنت لا تتقن من المفردات غيرَ أفعال اليقين، وتَحْسَبُها وحدها تقولُ الأشياء، ووحدها التي تُبِين. وتعوَّدْت على مَحْوِ الحدود بين المتناقضات. كلُّ شيء ممكنٌ كما في الأساطير: يمكنُ للّا مرئيّ أن يُرَى ويُسْمع، ويمكن للمنامة أن تسير غداً على قدميْن، ويمكن للواقع أن يكون محضَ وهْمٍ بين غفوتيْن. . .

تتخيّل أن الخرافةَ حدثتْ، وتسأل الجدَّة عن التفاصيل؛ المكانِ، والزمان، والشخوص، والشهود على الحادثة، ولا تصدِّقُها حين تحذّرك من التصديق...

تتخيَّل حريقاً في المدرسة، لئلّا يقطع نومَك الشحيحَ صباحٌ داهم، وتكاد أن تصدّق حين يوقظون

فيك النائم، فتقول: ليس على غير إبراهيمَ تكونُ النارُ برداً وسلاماً. . .

وتتوهَّم أن معلمتَك في انتظارك، على باب بيتها، كي تعجن لك قرص رغيفٍ من قمحٍ طريٍّ، وتُسْدِل على يديك خصلةً من شَعْرها، أو تُلَقّي على لهيبك قليلاً من مِدَاد اللسان. . .

وتتوهَّم أن صيف العام أطول من المعتاد، وأنّ الدولة تمدّد العطلة السنوية حتى آخر الخريف. . .

تتخيَّل أن ملكة جمال العالم تهديك قُبْلَتَها في رسالةٍ مهرتْها الشفتان ببصمة الأحمر، وتقول لك: خُذْ من جبيني قليلاً من التذكار لتستفيق عليه من ليلٍ يحتلُّه وجَعٌ، ويغشاهُ خوف. . .

تتصوّر أن العالم سيخرج أجمل من مطارق العمّال ومناجل الفلاحين، وأن قليلاً من الوعي والخطابة يكفي ليُشعل الحماسة في الملايين. . .

تتخيَّل أن وعود الأرض، مثل وعود السماء، تُقْضَى، وأن حتمية التاريخ قدرٌ وناموسٌ، وبعضُ وقتٍ يمتد إلى حين. . .

تتوهّم أن الحربَ محضُ خطإٍ بشريٍّ غيرِ مقصود،

وأنّ الإنسانيَّ المحجوب يكفي أن يَخْرُج من قيلولته كي يعود الجنونُ إلى غِمْدِه...

تتصوّر أن صندوق الاقتراع عذريٌّ، ومنصفٌ لا يَكْذب، ولا يُكَذِّب ما يقول أحفاد فولتير، وأنّ الشمسَ منه تخرُج، والمطرُ، وهديلُ الحمام، وكسرةُ خبزِ الفقير...

وتديرُ في رأسك ما تدير من وَهْمٍ يُنْجِب فيك وهماً، ويُعَشِّش في المعتَقَد، ولا تقف، إلّا صدفةً، لتسأل عمّا إذا كان شيءٌ ما قد كسَدْ من بضاعة اليقين بالهباء، وعمّا إذا كان مدى الإبصار الفذّ لكَ وحدكَ، أم لغيرك ممّن يقاسمك مجْدك؛ فللوهْم ألفُ طريقة للخداع، وليقينك أن يتدثر بالغربال، وأن يفر من التعقل الثقيل، ويفيءَ إلى الخيال.

تعلّمتَ، بعد ألفِ صدمةٍ واقعية، أن الوهم ضروريٌّ لاصطياد يأسٍ متربِّصٍ على الباب. اليأس والواقع رفيقان أو توأمان إنِ انفردا بك في وحدتك؛ يُولَد الأول من الثاني كما تولَد الجِراءُ في خلاءٍ قَفْر، وعلى رأسك أن تمتلئ قليلاً لئلّا تَقْفرَّ، فَيَضع فيها الواقعُ حِمْله. لا بأس من وهمٍ تَتَعَزَّى به ليمنع عنك الفراغ الفاحش، ويستأنف عدَّاد يومك.

كنتَ تقولُ، حين يجول الأمر في خاطرك؛ الوهم نقصانٌ فادحٌ في معدّل الواقعية في الدّم، تعويضٌ رمزي عن الفقدان، كالشوكولاطة في آخر الليل، كامرأةٍ من شمع، وفكرةٍ من دخان. . . ، صرتَ تقول، بعد أن تُبدي وتعيد، الوهمُ فعلٌ ثوريّ لصناعة المستحيل. وقيلَ لك، في ما قيل، إنك تَخْلط بين الوهم والخيال، وبين الممكن والمحال، ولكنّك لم تَرَ في الفارق بينهما سوى ما يفصل بين الشبيهين في البلاغة.

لم تتصالح مع الوهم تماماً، لكنك عذرت الرأس التي تفْرِش له المكان، وأدركْتَ أنها تُمَرِّن به بقاءها فوق المنكبين. ليس بين الأمْريْن جفوةٌ إنِ اقتربْتَ من معنى الخيال، إنْ أعدتَ ترتيب الصلة بين الوجود والعدم، وعثرتَ فيها على قرينةِ العلاقة.

X

لم تَعْقد هدنةً مع الخوف إلّا متأخراً؛ كان لا بدَّ منها كي تضع الحربُ أوزارها، وتستنشق هواء الشمال ملء الرئتين. ولم تخرج منتصراً، تماماً، من المعركة، لكن إحساساً ما بالحرية غمرك، مثلما غمرتْك نشوةُ الظفر على مرضٍ ألَمَّ بخاطرك. لم تكن

تدري إن كان للخوف اسمٌ آخرُ مستعار، مثل الحياد، أو اللامبالاة، أو الخجل، لكن شيئا ما فيك فَطُن إلى أن الخوف مملكةٌ تبسُط سلطانها في الأرجاء، وتُلَاحِقُ الأمل حين يرابط على حدود هيبتها غير آبهٍ بلسعة الوقت المؤجّل. كنتَ مصراً على أن تنساه، وأن تخشاه معاً، وأن تَعِد غَدَك بحيطةٍ أقل كي يستريح من التعب، ومن انتظارٍ يربّي الكسل.

الخوفُ وحشٌ داخليٌّ تجنّده الطبيعةُ فيك لترويض الأعصاب على التجلُّد، نداءٌ عميقٌ لغابةٍ خرجْتَ منها ولم تخرج منك، حربٌ بلا قواعدَ لتنظيم الاشتباك، وفتْكٌ ليليٌّ بمَنَامِك الهشّ. وعليك أن تخاف لئلّا تكون وحشاً، ولكي تُطَمْئِنَ الطبيعةَ والتاريخ على حكمتهما، وحكم النواميس. وكلّما عَلَتْ فيك الشجاعةُ، شحَّ البشريُّ فيك وارتفع نداء الأدغال في عميقِكَ الغَمِيس. كان عليك التوبةُ من ماضٍ سحيق لتستحق غداً تعجنه بيديك: حرّاً من الضرورة.

الخوفُ أسطورةٌ تَكْبَر في حقل الفراغ البِكْر، وتشيّد القلاع على صخور الخيال. وكلّما فاض الكلام عن حدِّ المرئيّ، اتَّسع المجال لتعشّش في شقوق نصّكَ اليوميّ كحبّة قَمْحٍ أخطأها الجَمْع. لو كنت تجرِّب ترويض العزلةِ على الخروج عن عزلتها، لكان

لك أن تَهَبَ الخوفَ فسحةً أقصر، وأن تُعْفِيَهُ من طول المكوث خارج قصره. ولو لم تُسْرِف في شدِّ الرحال إلى أوّل الأزمان، لكان أمكنك أن تروِّض وحشَ الخوف، كما روّضتَ القطط على الوقوف على القوائم الخلفية. لكنك ألَفِتْ عَادة الإصغاء للمدهش، وسافرتَ إلى أقاصي الماضي على صهوة الحكايةِ، كفارسٍ يبحث للأميرة الحزينة عن وردة الفرح في مغارةٍ سحرية. كنتَ صيْداً سهْلاً لغارات الخوف. وكان الليلُ المدجَّج بأخبار العفاريت يُهَيِّء لمنامك ما يجعل الرعبَ أقلَّ أضرارك. وفي قِمَارك اليوميِّ على مائدة الخرافة، كنتَ تبدّد فيك أوَّل الشجاعة، كما بدَّد شهريار ألف يومٍ ويومٍ في انتظار ما ليس يأتي.

بين الجدَّةِ و«الدادات» كان أوّلُ البِذَار في حقل فراغك؛ أَمْطَرْنَكَ بالعجيب الغريب، وما انْتَبَهْنَ إلى العاقبة. كل يومٍ تروي شهرزاد ما لم يقرأه هيتشكوك، ولا اهتدى إليه خيالهُ. وأنتَ، كالراهبة، تصدّق ما يقول الرواة عن حدثٍ لم يحدث، وعن مدنٍ لم يشيّدها إنسان، ولا كان لها رسمٌ في الزمان. يُغويك بعضُ المدهِش ويأسرك، ويرعبُك الباقي عن الأرواح، كما يرعبُك صوت مدير المدرسة...

ولقد بِتَّ ترى ما لا يراه غيرُك، وتسمع ما لا يسمعه الآخرون. وتقلصتْ فيك من وتَرِ الانتباه المشدود إلى آخِرِه عضلاتُ الجنون، فأضربتَ عن النوم وحدك. وكان على جحيمك أن يَدفن رأسك تحت المِلَاءَة، حتى لا يطالعك ما لا تراهُ العيون في العتم اللانهائي. جحيمٌ يَلِدُ الجحيمَ، وأنت تجترّ أصوات الليل، مثلما تجتر الأبقار كلأ المساء. كأن سرَّكَ في سرِّك مدفونٌ، ومصفَّحٌ بالكتمان؛ تعرف أنك، وحدك، تُبْصِر الأشباح في الليل، أو على الدَّرَج المفضي إلى الطابق العُلْوي من الدار، لكنك لا تصدّق من يقول لك إنها خيالات جبانٍ، مسَّهُ خوفٌ، وعَزَّ في شكيمته السواء. كلّهم على خطأ، وأنت فريدُ صوابك، ولو أقفلوا عليك باب الدليل.

ولقد منعوك من أخبار الأرواح، فأضربْن عن الحكايات. لكنك ألفيْت ليلك فارغاً، وعقيماً كدرس الحساب، ولم يطِبْ لك نومٌ، ولا شهيةٌ لطعامٍ، ولا سَمَرٌ ولا كتاب. ورجوْتَ، وتوسَّلْت، وجنَّدْتَ لِطِلْبَتِكَ كلَّ الأسباب. وما لَبِثْتَ، حينها، أن أدركتَ أن الخوف أرحم على القلب والروح من الفراغ الداخلي.

لم تفكّر، ساعتها، في ما يُخْفيه الخوفُ من

شجاعةٍ؛ فأنت تخشاه، لكنك لا تفرّ منه. كأنك تقهره فيك حين تبحث عنه في خرافات الليل، كأنك تفتح جرحه كي تغسله من تخمُّجِ الصديد، حين تواجهه ثانيةً. لم تفطن، حينها، إلى سحرية العلاقة بين الغريمين، ولا إلى كيف يستدعي الواحد منهما آخَرَهُ. وحين أصبح صدرك يصخب في الجموع، على مرمى نظرةٍ من الشرطة، فهمتَ أن الخوفَ ضروريّ للشجاعة لكي تقرأ نفسها في مرآته وتتجلَّد.

*

الخوفُ والسياسةُ ضدّان يجتمعان فيك؛ قليلٌ من التهوُّر يكفي لتحييد الخشية، وتدريب الأعصاب على الرجولة. وقليلٌ من الحيطة يكفي لصبّ الماء البارد على فكرةٍ جنونية لا تعرف من أيّ نبْعٍ فيك تخرج. تهتدي، بالدُّربة، إلى ميزان الاعتدال في طقسك، وتَيْنَعُ في اللسان مفرداتُ الموازنة. تخال نفسَك أمسكت بالخيط السيّد، وتغرِّدُ خارج سِرْبك كأنك طائرٌ أنْضَجَتْ جناحَهُ الريح. قلّما كان قلبُك يستريحُ من عاداتٍ أدمنَها، وصار لها في النفس إلفة، مثل تربية العواطف على التواضع في الإنفاق، والشكِّ في تعاليم المَدْرسة. غير أنك كثيراً ما تركْتَ الصامتَ

فيك يُفْصِح عمَّا يُكِنُّ وما يُجِنُّ، وأرسلْتَ فيه وتَرَ النداء الحيويّ، وغفَرْتَ لأستاذ التاريخ أخطاءَه. شيءٌ فيك كان ينمو ويتبدَّل في زمن السياسة؛ أبْعَد ما يكون ممَّا عرفْتَ في الماضي، وأقرب ما يكون إلى الكياسة.

من جدل الخوف والشجاعة تعلّمتَ كيف تتذوق صحن الأضداد؛ لا عيبَ في التناقضِ، قُلْتَ، حين قرأتَ درس الديالكتيك، وانتبهتَ إلى التغير. كلّ شيء يصير إلى غيره الذي ينفيه... ويبقيه. تَلْتَذّ باكتشاف لعبة التكوين، وتعاقرها كنبيذ معتّقٍ يفتّح الخيال. تتذكر المتنبي إذْ يعثر على المعادلة: «وكلّ شجاعةٍ في المرء تُغني... ولا مثل الشجاعة في الحكيم». وأمام ناظريكَ يتسع المجال لتقارن بين الخوف والتأمُّل، لتبحث عن شَبَه الشبيهِ بشريكه في الرَّيْث والحيطة. ماذا لو كان الخوف شجاعة مضمَرة؟ ماذا لو كان الاندفاع خوفاً منفلتاً؟ تكرِّر أن الخوف ينضج مع الزمن؛ يكون غريزيّاً وبدائيّاً، ثم يصير حساباً نظريّاً للاحتمالات، تردُّداً بين حدّيْن وأكثر. ويكون أجْهَر حين تضيف دائرةُ الإمكان.

*

لم تعقد هدنةً مع الخوف إلّا متأخراً؛ فلا أنت تهابُه، ولا هو يغشاك. تقيم في منطقةٍ رماديةٍ بين صوته وصمته، متدثراً بما احْتَطَبْتَ من أعواد التجربة، ومؤجِّلاً سؤالَه عن سرِّهِ السحريّ. ليس في المدى البحريّ زورقٌ للنجاةِ من طوفانه حين يَشْطَطّ، ويُرْغي. لكنك تُصغي إلى موجهِ من بعيد كي تَتَّقيه حين يغضب؛ فليس لديكَ الكثيرُ ممّا ترُدُّ به الغائلة، وليس بين السابلة من يُلقي لك طوقاً لتركبَ صهوتَه إلى برٍّ آمنٍ من ثورته. تقهَرُهُ حين تهجُرُهُ، وتتركُه على دَرَج النسيان ينتظر فريسةً لا تأتي، وتروِّضُهُ حين تَفْرك، بالأصابع فروةَ رأسه، وتُرَتِّل بين يديه درس الواقعية.

بينك، اليوم، والخوف ما بينك والشجاعة؛ على نفسِ المسافةِ منك يقيمان، ويبْحثان عن طرائد أخرى أسهل. صاحبْتَهُما في زمن، وتَعِفُّ اليوم عن المزيد، لتحفظَ لكَ الحيادَ الضروريَّ أمام كائنيْنِ أهوجيْن لا يُسْلِسَان القِيَاد. لستَ سائسَ خيْلٍ أو حشودٍ كي تروّض الرعونةَ، وتعلّمها أبْجديةَ أَهْلِكْ، تكفيك الهدنة وصفةً للسكون، وكفّاً للجنون، وحلّاً للشِّجار أمثل.

سِفْرُ التأويـــن

XI

حرَّرك الشعرُ من الجنّ، وحررتْكَ السياسةُ من الشعر. أمسيْتَ على أديبٍ، وأصبحتَ على داعية، وقضيتَ بقيةَ شبابك والكهولة نثريًّا. ولو استقبلتَ ما استَدْبرْت، لاخترتَ القصيدةَ والروايةَ، وأرخيْتَ للمجامح فيك عنانه. للقلب مطالبُه، وحقوقُه من قسمة الروح والجسد، وللعقل بقايا البقية. وما كان أغناك عن التَّحَيُّقِ لولا أنك لم تُفْرش للخيال بِساطَه الكُحْليَّ، ولم تُسْرِج للجماليّ حصانَه؛ فما كان الحَسَد ليدُقَّ إسفيناً بين صورةٍ من القريحةِ وفكرةٍ من وَجَع التأمل. للتحمُّل في الكلام روعتُه، وهيبتُه، ولا يكفيك أن تستضيف الشعر على مائدة النثر، وترسِلُه في بعض مسارب قولك؛ فالشعرُ سيّدُ الكلام، وهو المضيفُ لا الضيف، وإن كنتَ في الكلامِ تُهْمِلُه.

بعضُ السياسة فيك يفيدُكَ: يحرِّرُك من أصفاد الأنا والخيال، ويلقّنك درس الواقعية. الالتزام طقسٌ إضافيّ في اليوميات، وفاكهةٌ من أطايب الكُمَّثْرى

والعنب، لكنَّ الأبجديَّةَ ما يعلّمُك التاريخُ عن نفسه وعنك، مما تعيشه ولا تراهُ، ومما حفَظتْهُ بطوفُ الكُتُب. السياسةُ من ذهَب إن صوَّبت البوصَلَةْ، وأسرجْتَ للغد طعامَهْ، والسياسةُ من حَطَب، إن خانَتْك النباهةُ، واستقرَّ فيك شيءٌ من العُجْب الأحمر.

تغريك السياسةُ بجنّةٍ موعودةٍ على الأرض، بكؤوسٍ من نبيذ أنْضَجتْها داليةٌ لم تَرَها، وبنَخْبٍ شهِيٍّ على قبر الرأسمال. ليس من مُحَالٍ في السياسة، يقول لسانُها، لأن في الأرض من الإرادة ما يكفي قليلُه لتكون لنا وحْدَنَا، بعد أن كانت لهم منذ فَجْر الانقسام. في السياسة متَّسَعٌ للزحام، ولتدافُع المناكب على ما يغري الخليقةَ بالخصام. وفيها ما يؤلّف بين غريمين اشتجرا، منذ الزمن الأول، على معنى الحيازةِ في كتاب الوجودِ. قليلٌ من العَزم يشقّ الصخر، ويجهّز للمدى المفتوح أَزْرَقَهُ. وكثيرٌ من التردُّد يَفْتِك بحقّ الألم في نهاية سعيدة. والسياسةُ بعيدةٌ عن قلب يَعَافُ الصراع، ويبحث في المركَّب عن بسيطه الأوّل، أو يمنح غَدَهُ راحةً مُؤجَّلَة حتى آخر موعد الولادة. السياسةُ ما يُدْنِيكَ منك وعنك يُبْعِدك، ما يعقد للعمل موعداً مع الصخر والجمر، وما يُسْرج للريحِ ريحاً تأخذها إلى كّل الجهات.

للسياسة جثمانٌ ورفات، وموكبُ وداع ونائحات، حين يهجرها أهلُها، ويَنْفَضُّ عنها الخِلّان. ولها عرشٌ، وصولجان، ونداءٌ في النفس يشبه نداء الغريزةِ إذا ما دبَّ في أوصالها لهبٌ، ورِكبَها مَسٌّ من فوضى يُطْلِقها في الشعار شارعان. وللسياسة لونان: أحمرٌ وأخضر؛ فبأيِّ اللونين أنت أجْدَر؟ يقولُ داخلُك: الأحمرُ لون البعيد لا يساوم، ولا يغفر لمن ارتكبوا الخطيئة في الأرض، والأخضرُ نصفُ انتصارٍ واقتسامُ مَغْنَم. وتقول: إن كان لها قانون سيْرٍ، فالتوقف عند الأحمر خيانة للطبيعةِ والأهل، ومَلْعَنَةٌ لمريدها ومَأْثَم. وفي كل شوطٍ من الرحلة، عليك أن لا تطيل الانتظار لتعرف كم أخذْت من الوعد بمقدار، حتى تقرّر إن كان ما يزال في الرحلة ما يغريك، أو أنك تلهو بالكلمات في قصيدة.

أمعنْتَ في معاقرة السياسة كثيراً حتى ضاع منك خيط البداية، والنباهة، وركبتْك فروسيةُ الداعية. ولم تعد ترى الأشياء، مثلما هي، في أشيائها والطبائع. أفأنْتَ تَرُوغ رَوْغ الداهية، وتنسى أن للسياسة هريراً وزئيراً، وسُمَّ ثعبانٍ، ومدّةَ صلاحية؟ وليس من مُقامٍ لك فيها إلّا إذا رغِبْتَ عن المزيد من الشك في الحقيقة؛ فالسياسة حذيقةٌ صلعاءُ ممّا يريح النظر،

وهي ـ كالغجر ـ لا تقيم في مكانٍ واحدٍ، وهي ـ عكس ما تريد ـ لا تَحْفل في الأشياء بالماهية.

هذَّبتْكَ السياسةُ وعذّبتْك، وتداولتْكَ أيامُها كجُنْدُبٍ صغيرٍ بين الرمال ضائعٍ. ومثل جائعٍ كنتَ بها كَلِفاً غيرَ مبالٍ بالعاقبة. وكانت تلسعُك عند المنعرج، وتعبثُ بك. وكان في رأسك كثير من الهرج عن فوائدها والمضار، مثل دواء متعدّد الخواص. تعرف أن السياسةَ مرضٌ مُعْدٍ لم يبلغ درجة الوباء، لكنك تقول في نفسك إنها شرٌّ لا بدَّ منه لتنظيف الهواء ممّا يلوّثه.

وتَلوَّث الهواء أكثر، وتولّاك بُرْمٌ بوعْدٍ ليس يأتي، أو قد يأتي على بقيةٍ حياةٍ في الخاطر. الرأسُ يابسةٌ والحزنُ ماطر، والأيام تطوي الزمانَ، ولا تُبقي على غير الذكرى أطلالاً من حُلمٍ أيْنَع في غير فصله، وأصبح يابساً مثل حشائشَ بعثرتْها الريح. تَخْسَر حربك بكرامةٍ، وتبحث لانسحابك عن موقع دفاعٍ حصين، ولا تستريح، لأنك لم تتعوَّدِ الكسل، ولأنَّ قانون تصريف الطاقة فيك سليم، وحيَّةٌ فيك روحُ العمل.

كنت تحتاج إلى العُدّةِ والعتاد، وحيازة عادات

أليفة، مثل إتقان الكذب؛ فللسياسة أخلاقها الاصطناعية وقواعدها، كأيّ لعبة رياضية. كنت تقول إن الكذب لا يجوز في مَعْرِض الحقيقة والناس، وقد لا يكون مباحاً إلّا في حبّ فاشل. فلا بأس، إذن، من أن تقاتل على جبهةٍ أخرى تعرفها أكثر، ولا يلوثها الحراس.

اقتربْتَ منها عن بُعْد، وابتعدت عنها على مقربة، وداويْتَ بها جراح الوحدة، وخضت قليلاً في التجربة. لم تَرْضَ، يوماً، بأن تَلْبَس السياسةُ ثوبَ حزبٍ، فهي عندك أجَلُّ من أن تكون حريماً يُقْفَل عليها الباب. السياسة، عندك، امرأةٌ تمنحك الرضا الضروريَّ، وكتاب يَهَبُ الدنيا لقارئه، ويزوِّد غليلَ السؤال بالجواب. لستَ منها بمنزلة المُريد، لكنك عند أمرها لا تشْرُد، حين يحاصر غيرَك غبش الالتباس، وعن سبيلها لا تَحِيد. والسياسةُ كلامٌ مفيدٌ كلّما هبَّ على الناس غامضٌ لا يُجْليه الكلام. هي الحسام حين يطول النصُّ، ولا تتفكك العقدة؛ هي الجودة في رونقها الأفرد؛ هي الأوحد في الطبائع والصناعات؛ هي الفقاعات قبل أن تفقسها الريح؛ هي الشحيح في معرض وفرةٍ وافرة؛ هي النافرة كحصانٍ مَسَّهُ وخز مفاجئ؛ هي فرزٌ بين ما لا

يجتمع؛ هي غمزٌ من وراء الانتباه؛ هي الاشتباه في ألوان الأفق؛ هي الرحيل عن الطرق المقفلة؛ هي كالمنزلة بين المنزلتين في كلام المعتزلة؛ هي المُقْتَتِلَة مع ضرَّتها على زوج لا يستحق؛ هي المنتَعلَة نَعْلَ الصعود إلى الأعلى؛ هي الأغْلَى في بضائع التاريخ؛ وهي الشاهدةُ على قبْر زمنٍ تصرَّم وتَرَكَ أهله عراةً في الفلاة.

تعشقُها وتعافُها؛ كحبيبة فاضت عن معدَّل الحب الضروري. تُمْهلها وقتاً كي تتماثل للواقعية، وتروّض الوحشَ الكاسر فيها على التفاهم. عبثاً تحاول أن تُسالِمَ حتى لا تقطع خيط المودة، لكنها تضحك منك ومن جُبْنٍ ترميك به، وتخيّرك بين صحبتها والفراغ. تقول لها مكابراً: «لستِ وحدك من يُؤنِس وحشتي ويهيّئُني للواجبات. أنتِ مجرد واحدة من ممكنات».

تسخر من سذاجتك ومن جرأتك وتقول: «جّرِب حظك، إذن، مع غيري». تُجّرِب، وتجّرِب أن تنساها كما تنسى حادثةَ سيْرٍ عارضة، وتَغْرقُ في المجرَّد؛ مستسلماً لخدر العُلَا، باحثاً في الالتباس عن الجواهر. لا شيء يضاهي إغراء الماهيات غير نداء الجسد، وقليلٌ من عِطْرِ قصيدةٍ فاحَتْ في البلد. والمجرَّد خصبٌ بالغموض الضروريّ لوضوح الأشياء والكلمات.

تستهويك لعبةُ الهروب من مملكة السياسة. تتخيل أن الرئاسة تُعْقَد للشعراء والحكماء والمتصوفة؛ في كل وادٍ يهيمون، وفي كل جبلٍ يقيمون، ويبيعون الحِسّيَّ في سوق النخاسة. هل صدَّقْتَ أن الشعرَ يُنْجب شعباً من المقاتلين، وأن الفلسفة طريقةٌ أخرى للخطابة، والتصوُّفَ بَلْتَرَةٌ روحية؟ هل صدقت أن الثورةَ جملةٌ اسميةٌ لا فعل لها ولا فاعل، وأن ظرفَ الزمان، كظرفِ المكان، ساكنٌ بين حركتيْن لا تتصلان. السياسة جَبَلان يربضان على صدر قارئ أخطأ نصَّهُ المناسب، وتحاشى أن يعترف لئلّا يفتضح سرّهُ، ملحمتان للطوبى والإمكان، وامرأتان تتنافسان على عرش المخاَطب. السياسةُ تدريبُ اليوميّ على البعيد، قصُّ جناحيْ حُلم طائرٍ كي يترجَّل. السياسةُ ما تمهَّل، حين تجنح الرغبةُ للعربدة في اليوم البهيم كَلَيْلِهِ، والسياسةُ امرأةٌ تقرأ فنجان التاريخ.

تودّع السياسةَ ولا تودّع غيرَ وهمك؛ فلستَ تملك أن تخرُج من جلدك، ولو أقفلت عليك المكتبة. تحمل اللوثةَ في دمك إرثاً منذ المراهقّة، مثلما ورثت ضغطك الدمويّ عن أهلك. عليك فقط أن تعلّمها قواعد الاستئذان، لئلّا تداهمك في كل حين، وأن تترك لبقيةِ وقتك وقتاً للرحيل إلى ما وراء المرئيّ.

ليس في يومياتك ما يُعْفيك من التأمّل في ما قبل المجَّرد من أشياء، فللقلب مواقدُ أخرى لتدفئة الصقيع العاطفي، كالشعر، والرواية، والسياسة، والموسيقا، وضرائر أُخْرَيَاتٍ للحبيبةِ. ليس فيك ما يُغْنيكَ كي تُسْرِجَ الرأسَ خارج مجالها الحيويّ، وتقذف بالحُلُمِ إلى ما وراء الطبيعة. للفلسفة حصَّتها من وجَع الانتباه، وللسياسة قسطٌ من قسمةِ التوزيع.

XII

قافيةٌ من معلَّقةِ الروح المحاصَرِ لا تستقيم في القصيدة؛ تهيئ الكلامَ وتُسَابقُه، وتَزُفّ الصورةَ بلا وزنٍ ولا شِعْريَّة. إيقاعُها سماعيٌ، ودمُها باردٌ، ونَحْوُها حامضٌ كبرتقال صيفٍ مبكرٍ، وليس لها من جمهور غير شاعرٍ يُقْفِل البيتَ على نصف المعنى، مثلما يُغَلّقُ باب الغرفة والخَوْخَتَيْن على نومٍ يُقَطِّعُه أرقٌ فوضويّ. الشاعر رؤيويٌّ، أو هكذا يحسَبُ نفسَه، وضائعٌ بين فقير المأثور وقارعةِ طريقٍ مُغْبَرّ. يقول له الماضي: كنُ ما شئتُك أن تكون، فيكونُهُ من دون أن يُشْبِهَهُ، أو يقاسِمَهُ الزمان. وفي المكان الذي يَلِدُ المكانَ ويُكَلِّلُهُ، يَخُطُّ لمعنًى شائعٍ مكرورٍ صوراً «شعريةً» متهدّلةً كجَفْنَيْ امرأةٍ يؤرقها الاكتهال صبْحاً وعشيَّة.

فكرةٌ بسيطةٌ تُفْلِت من شَرَكِ القريحةِ، وتمضي بعيداً خارج ملكوت القصيدة. لا مكان لخامات لم يدرِّبْها الخيالُ على الكينونة؛ سيطول بكَ المدى إن أنْتَ نَظَرْت المعنى ليخرُج من غموضه، غَيْباً، بلا إسعاف. سيرهقُك التجريبُ إن حاولتَ أن تُعَالِجَ بِاللُّغة ما أفْسَدَهُ التخييل. سيصيبك مرضُ التأويلِ للبديهيّ بالملتبس، ويأتي على ماء قريحتك الجفاف. وليس من ضفافٍ لنجاةِ الفكرةِ غيرَ أن تُنْضِجَها في الرأس لتأخذ أناقتَها في صورتها المناسِبة. للقصيدةِ، كالمرأةِ، وحْمُها وعادتُها الشهرية؛ لا تقربها حين تحرن كفرسٍ جموح لا تُسْلس القيادة. ولا تيأس من تمنّعها إن أصابَتْها جَفْلةٌ من ندائك؛ فكلُّ شيئ يُعَاد إلى نصابه إن حكَّمْتَ قوانين الطبيعة في أشيائك كما تُحَكِّم قواعد اللغة في الكتابة.

الشِّعْرُ سيِّدٌ متوَّجٌ في مملكة الكلام، ونبيٌّ يتجسَّد؛ في الريح تَسْمَعُهُ، في خرير الماء، ونسمة الهواء، وانكسار الضوءِ على وردة خَجْلَى، من مئذنة ترفع الأذان إلى أعلى تَسْمَعُهُ، وفي طفلٍ في الكنيسة يتعمَّد تَرْمُقُه. أينما تولّي عينيك ثمة شعرٌ؛ هو التجلّي تنكسرُ الحدودُ على رهبته؛ هو التحلّي بما تفيض الروح عن خريطته؛ هو الحبُّ في طُهْرِهِ القليلِ وفي

خطيئته؛ هو العود في بهاء نقرته؛ هو المكان في وجع الوتر؛ هو القمر حينما يخلد لهدأته؛ هو المرأةُ حين تستسلم للحب؛ هو القلبُ حين يُسِرّ بخبيئتِه. والشعر سيّدُ الليل، ومَرْبِطُ الخيلِ، حين لا يتسع المكان لغيره، وحين تضيق الدنيا بالدنيا ويُرسل الرجاءُ نداءهُ في الأفق. إن سكنتْك الصوفيةُ أدْمَنْتَهُ، وإن عَسُرَ التفلسف فيك طَلَبْتَهُ، وإن ضاعَ الكلام عن مقْصِدِهِ تفجَّر فيك الذي لم تنتظر.

والشعرُ لا يَنْكَسِر على حدِّ سيْف المُبْهَم؛ فهو المنتصر، دوماً، في حروبٍ تركبُها الأشياء إلى المعاني البعيدة، وتكسبها كلّما استسلمتِ الالفاظُ للقريحةِ وخَرَّ المُعْجَم. والشعرُ أقدم من كلامِ العرب والمنمَّنقِ في بطن الصحراء، وأقربُ إليك منك ومن نداء الحنطة في اللعاب. وليس في الشعر ما يُعَابُ غير تزيُّدِهِ في التحسين والتقبيح، وتَعَمُّدِهِ إفشاء سِرٍّ المُضْمَرِ في لفظٍ صريح. ولقد قيل «أعذبُ الشعر أكذبُه»؛ فما الذي يضير الجمال إن اشْطَطَّ وغالى، فليس بعد جنونه غيرُ جميلِ ما قالَا؟

ولقد قال الشعرُ فينا ما يكفينا... ولا يُغْنينا، وليس من غَنَاءٍ بالكفاية إلّا حين يَمْرض الخيالُ بفقر الدَّم، وتُصابُ الذائقةُ بالمجاعةِ. على الشاعر أن يكون

شَرِهاً للصورةِ، وشبِقاً كأجداده ليتكاثَر نسْلُهُ من القوافي، وليقْهَر شعبُه قيظ الفيافي بعرائشَ يَفيءُ إلى ظلّها الظاعنون في بيداء الكلام. الشعرُ ما لا يُلَام إنْ تأخَّر عن موعده، فعليه أن يأخذ عدَّتَه، ويتزيَّن، لئلّا تُصيبَ الخيبةُ من ينتظر، على آخر حبْلِ النثر، طَلْعَتَهُ، كما ينتظر الحبيبُ رسالةَ صفحٍ من عشيقته على خطإ لم يرتكبه في المنام.

تكتبُ شعراً وتُخْفيه؛ كأن بالقصيدة جَرَباً يُخْجِلُك. كنتَ في الماضي تزهو بانهمار القوافي من دون تكلُّف أو طلب، ولم تعتذر إلّا على ما لم يُجبْ شهوتك منه التعب. وصَحِبْتَ أهْلَه من فطاحل القدامى، وأَسكَنتَهُم لَيْلَك، وقلَّدْتَّ مشيتَهم في الفخر والهجاء، وأنت تعتلي صهوة فرِس من خيالك. وفي الصباحات تَحْمِل من متاعك الشعري بعضه لرفاق المدرسة، فتوزّع كعكة الخيال كَمَن يوزّع الهدايا بالسخاء. أصدقاؤُك على القَرْض يحْسُدونك، وأنت لم تُبَالِ بشرورِ عيْنٍ حدَّثَتْك عنها جدَّتُك، وأحرقْتَ لك على الجَمْر شبَّةً وحَرْمَلاً مصحوبَةً بتعاويذ، لم تَفُكَّ لُغْزَها، من شرور حاسدٍ إذا حَسَد. كنتَ تبحث عن مَدَد في نظراتِ إعجابٍ تُلْقَى عليك في ساحة المدرسة، ويتوجُّها اعتراف

المعلم بفطنتك في تبيُّن الفارق بين معنًى شعَّ في بيتٍ وآخر في جملةٍ خَمَد.

لا تعرف ما الذي أصابك اليوم حتى تحجُبَ ما يُفيضُه الليلُ فيك! القصيدة بَيْضَتُك وأنت تتركها في العراء بلا حِضْنٍ، وتدَّعي أنَّك أكبرُ من لُعْبَةِ رمزٍ يُخْطئ الطريق إلى قول الحقيقةِ. الشعرُ يَصْلُح لتزجية الفراغ، تزعُمُ، أو لتقطير الكلام على زهورٍ تينَع في الحديقة. لا شيئ أكثر تبقيه لانقلاب الخيال على نفسه، في معركة المعنى غير ما يتركهُ النسيان، على قارعة المكان، من ظلال. لا جبال تَحُدُّ الريح كي ترميَ بالقصيدة في الغِيَابَةِ وتستريح. ولا سِلاَلَ تملؤها من فاكهة الذكاء إنْ لم تحترم الفكرةُ أوَّلَها الخياليّ. كأنك لم تَعُد تبالي بما لا يقوى عليه غيرُ القريحة؛ من نبوءَةٍ أو من ضيافةٍ لمعنًى يُفْلت من العقل. لم تكن لتخطئ في الماضي مراتبَ القول؛ فكنت تُجَاوِرُها كما يتجاور فيك الحذْرُ والشجاعة. وحين يسْكُنك الخَوفُ من التناقض، تطرد الخاطرة السريعة وتقول: «اعطِ ما لله لله وما لقيصر لقيصر».

دفَنْتَ القصيدةَ حيَّةً وما أُخِذَتْ بذنبٍ: غير أنك خِلْتَ الفلسفةَ تَنْسَخُها، وتَمْسحُها من مائدة ديكارت! من جرَّأكَ على مقام الشعراء، وهُمْ يقيمون فيك، وفي

دمك يسبحون؟ هل كنتَ تصفّي حسابَك مع الذات؟ تعاقبُ نفساً بما ارتكبتْ من الجَمَالِ؟ هل كنت ترفع المحال إلى مقام البديهيّ، أم كنت تُعلن فقرَ الخيال فيك إلى ما يجعله اسماً آخر للوجود؟ أنتَ موؤودٌ مع قصيدةٍ تهْجُرها، وتهرِّبُها إلى ما وراء حدود الغياب. لكن القصيدةَ لا تموت، وإنْ مَحَوْتَ حروفها، ورَمَيْتَ بأشلائها إلى البعيد، كما ترمي بنظرة تائهةٍ إلى السراب.

تستأنف الشهوةُ بَدْءَها عند منحدر العُمْرِ. يعود الذي كانَ إلى ما كان، وتستعيد الأشياء دفء البداية. تمتلئ بالزمن، هكذا تشعر اليوم. تتحرّر من الشعور بالتجانس والصفاء، وشغف البحث عن الماهيات. تقترب أكثر من إيقاع الطفولة، وفتنةِ الأشياء من حولها. في الغامض بعضُ وضوحٍ يَخيطُهُ الخيال من حدوسٍ أو مشاهدات، ولا شيئ يخْرج من عصير الرأس مثلما كان صافياً، بلا تيهٍ بين مناقضات. حصَّةُ الرؤيةِ كحصة الرؤيا متكافئةٌ، والتفاضل بين المركبيْن لعبةٌ تعرِّضُ اللغةَ لِضِيق التنفّس، وتَصْرف النَّفْسَ عن عادتها في البوْحِ بالغليلِ، وبالدليلِ عليه

للشعر، اليوم، مكانٌ في دفاترك. تشكُر ربَّك على نعمة الهدايةِ بعد ضلال، فما كان أغنى الخيالَ عن

قَفَصٍ أقفل المكان على الصُّور، وفتَّح الأبواب على نظامٍ فيك يُخْمِد الفوضى. ها أنت، الآن، ترضى من الآيبِ بما خلَّف على جدرانٍ ماضٍ تُصَالحه. هل تُصَالِحُه أم تكافئه على شحنة الحنين التي يبعث فيك؟ وما الفرق بين أن تَصْفَحَ أو أن تؤنّب، إنْ كان عليك أن تجرِّب ما انقطع حبْلُ ودِّهِ في مَعْزَلِك؟ للفوضى ثمنٌ ستدفعُهُ من رتابة النظر إلى العالم من فوق، من ربْوَةٍ على صخرةٍ تُطل على نظام. للفوضى خيام لا تقيم فيها إلّا ساعةَ يومٍ قبل أن تظن، وعليك أن تسير في ركابها حتى تتذوّقَ الأمثولةَ: راجلةً على قدميْن. وهي كالخيل تحْرن؛ لكنها تفقد اللهب حين تُمْسِك أَزِمَّتها وتجرِّب سياستها. لا يروِّض الفوضى أحد، ولا يَعْقِلُها إلّا غبيٌّ مسَّهُ صَعْقٌ من مستحيل، وتَنَاقَصَ في ذكائه ماءُ الأدب.

وتقول، بالأدب، ما تَلَعْثَمَ في لغةٍ أخرى وأصيبَ بالحصر. ليس في العقل ما يكفي من الجَمْر كي يُدْفِئَ ما وراء «الحقيقة»، وعليك أن لا تُلقي سلاحك في الطريق إلى اللغة؛ فخلف نظامها حرّيةٌ لا تُحَدّ، ومدينةٌ تَفْتَحُ ذراعيْها، والحواري والطرقات، لقاصديها. ولك أن تقيم فيها من الشعر حديقة، وتسقي شَتْلاَتِها بما ترك ليلُ الخيال من ندًى رْطبٍ في

المكان. الشعرُ امرأةٌ لا تُصَدُّ رغبتُها فيك إن فاجأتْك بالطلب. فلا تعتذر عما يداهم خلْوتَك من شغفِ قلبٍ بالخياليّ، وبما كَسَب.

XIII

على باب بيتك، يمرّ الذاهبون إلى حصّتهم من الدنيا. تَرَاهُم يضحكون أو يَعْبِسون، أو يتخذون الحياد في التعبير. ما زال التكبير يصَّاعد من المئذنة، ونومُك لم يُؤْذِن بالبداية. تتلهّى بالتلصُّص على مارَّةٍ قليلين من شرفةٍ لا تُطِلّ منها على هدفٍ. تُمَيّز بين العمال والقاصدين المسجدَ من مشيتهم؛ تعلَمتَ ذلك بخبرةِ التكرار. شعبٌ جرّار يَغِطُّ في الحُلم هذه اللحظة، وقليلٌ من الفحولة يبقى مستيقظاً حتى الفجر، وأنت على الشرفة تدخِّن سيجارةَ آخرِ اليوم، قبل أن تطوي صفحة ليلك الممتدِّ إلى ما بعد الليل.

في حيّ المحيط يَقِلُّ الزِّحامُ على الكلام، تُضْرِب الشوارع والأزقة عن عادات الناس في المدن العتيقة. تكتشف حياد الجار في طقوس التحية، والتقشفَ في تبادل النظرات. تشعر، في البداية، بالغرابة. لكنك تَألَفُ ذلك سريعاً؛ فأنت أيضاً تمقت الثرثرات، والرغبة في كَسْر الحدود، والبحث عن فائِض

الصدقات. تلوذ بالبيت كثيراً، وتُضيع وقتك في تَقَرّي الجرائد، كأنك تبحث في الأخبار عن أسرارٍ لا توجد في المرئيّ، أو في الكتب. وحين تضيق بك العزلة، وينقطع ما بينك وبين شريكتك، تبحث خارج الحيِّ عن نزهة أخرى للخاطر، وعن مساحةٍ لمدِّ البصر أوسع من حدود نظرتك.

على حدود المحيط محيطٌ لا تكاد أن تراه إلّا مصادفةً فأنت لا تستطيب البحر إلّا حين يرقد في قصيدة. وحين ترمقه من بعيد، تَعِدُهُ بأن لا تعكّر صفوهُ ثانية، وترميه بالنسيان. وفي الطريق إلى مقهى الضحى، تَحْتَفِنُ يداكَ الجرائدَ كي تبدأ لعبةَ الغرقِ في حُمّى التفاصيل. لا يطيب لك الجلوس طويلاً على قارعة الأنظار، لكنك تُصِرّ على مكوثٍ لا بدّ منه كي تتجنب خصاماً عبثيا في الدار، حين تعود خاويَ الوفاض من الوداعة.

الحياةُ صناعةٌ، وحرفةٌ تُحْتَرف؛ يضيع من لا يقوى على تعلّم الأصول، وإتقان التنازل عند الضرورة. وكمدينةٍ مهجورة يستقبلك الحيُّ عند منتصف النهار، قبل أفول القيلولة، وتعرف أن شيئاً ما قد يحدث بعد قليلٍ من وصولك، فَيُطَيِّرُ من رأسك بقايا حبّات الكافيين، كما تطيِّر الريح أوراقاً يابسةً في

فصل الكهولة. ليس لك جَلَدٌ يكفي لتُحَّول النِّقار إلى وجْبةٍ لرياضة الأعصاب على الكياسة. أحياناً تُفْلح في امتصاص الفائض، فتَسْلُكُ سبيلَ الصفح عمّا طنَّت به الأذن، وأحياناً تخونُك حكمةُ الوصايا القديمة، وتمارين اليوغا، ورحيق السياسة.

في العمل، يتناقص فيك معدّل الخجل؛ تُقْبل ولا تُدْبر، تَنْهَر وتزأر، كأنك فرسٌ مسَّتْها صعقةُ البطولة. تتحمّس أكثر حين يجيبُك الأكثر لما يطيب لمزاج التنظير فيك. تنسى، في الغالب، أن المركَّب لا يركب رأساً إن لم يترجَّل عن صهوة المجَّرد، فيمشي في الأسواق. تجرّب صعباً وأنت تدوِّر الفكرةَ على جهات المحسوس، كي تلبس ثوباً تُزَفُّ به إلى وجدانٍ جائع للوضوح. تكتشف، كل يومٍ، كم يكلفُك الغموضُ من التعب كي تمسح عن جبينه الغبار، كم من جدار تبْنيه أمام الخطاب حين تُرهقه بالوقار. لم تكن عادياً كما أنت، لم تضحك يوماً إلا على خطإٍ فادح، لم تصارح نفسك إلا في خلوة لا شهود فيها عليك، لم تجعل للغريب مكاناً ليصير مألوفاً، لم تحاول أن تكون لهوفاً إلّا على الأمثل. مرّت الأيام ومرَّت، قبل أن تقول: ما أصعب الوضوح حين يكون الغموض أسهل.

وكان أسهل عليك أن تتذكر في الصباح ما نَسِيتَهُ في الليل. للتذكّرِ طعْمُ البطيخ في الصيف، حين ينهمر على رأس أودعتْ أقفالها في السطر الأخير، المنسيّ، قبل إطباقة الجفنين. ليس من خيلٍ تخِبُّ فوق الاسفلت، لكن في الرباط ما يوحي بأن المدينةَ تُضْمِر في داخلها زمنيْن: واحدٌ لزينتها، والثاني لذاكرةٍ تضيق بالجدران. تحمل في الداخل شطر المدينة الثاني، كي تطلب جوار المدن التي تركتَها خلفَك، كما يترك الرُّحَّل خلفَهم رائحة ربْعٍ انتجعوه برهةً بين سَفَريْن. كأنك غجريّ لا يحترف المكان إلّا لينسخه بغيره، ويقيم له في المكان مكانَهُ. كأنَّ مكانك لك وحدك في مكان الآخرين الذي أنتَ فيه، وأنت خارجَهُ. كأنه يَهَبُ الذي لا يقاسمك إيّاهُ أحدْ: الشعور بالبلد. تقول إن البلد من صنع القلب والخاطر؛ طينٌ من الصُّوَر تَعْجِنه اليدان، وليس البلد ما قالت الأناشيدُ والكتبُ، ولا ما ترى العينان. تغرِّد خارج المألوف وأنت تنحدر إلى قلب المدينة باحثاً عن مدينتك.

ما أقسى الرطوبة في الفصول الأربعة؛ اكتشفتَها، متأخراً، بعد أن روَّضَتْكَ المدنُ الأولى على هواءٍ فطريّ. لم تكن تطيق صَهْدَ مراكش وفاس حين يُفْلِت من قمقم الجحيم. وكنت تشكو، قليلاً، من شتائهما

القاسي إذا اشْطَطَّ، وأرسل الجبلُ فاكهة بياضه إلى السهل. لكنك، الآن، تدرِك أن الهواء المشبَّع بالماء أقسى على رئتيْك من دخان السجائر، وأن شرايين الخيال تضيق بالبخار، كما تضيق الشوارع بالمَرْكبات عند منتصف النهار. قليل من المشي لا ينفعك لتعبئة الصدر بالأوكسيجين، وكثيرٌ منه لا يَسع جسماً تَلَبَّث في المكان، طويلاً، كما تلبَّثَ في زنزانته السجين. فكَّرْتَ أكثر، من مرة، في أن تغادر وتودّع، مختاراً، قَدَراً اخترتَهُ كي تكون في العاصمة. لكن شيئاً ما إليها يشدُّك، ويصدُّك عن الرحيل أنك لا تريد مزيداً من أثقال الذاكرة.

ها هنا يقيم الجميع؛ الدولة، والجاهُ، والأحزاب، والسفارات. مكان مفتوحٌ على جهات الأرض كلِّها، ونصٌّ نثريّ لتجريب الوصف الطليق من قيود اللغة، ومن فيض الإشارات. المدينة واضحة لأهلها والعابرين، لا يضيع من أسرارها إلّا ماسَهَا عن فضولك، وخبَّأ وسواسه في صُرَّة مدفونةٍ تحت الوسادة. وتعرف المدينةُ كيف تتألق في حسن الوفادة من دون أن تدفع شيئاً من ضرائب. في النفس خرائب تُدْمِي الذكرى، وتَحْجُب فتننة الليل عن قلب المدينة. لو تخلو إلى المدينة وحدك، بلا رفيقٍ من الماضي،

لاكتشفتَ أن الذي بك سهْلُ التمريض بالمشْي الوئيد، ونسيان ما سمعتَ أمس. لو تحرِّر العينين من مخاطبة المرئيِّ بغيره، ولعبة المقارنة، لأدركْتَ أن المكان يكبر بالمكان، وأن الواحد منهما لا يولَد حيث يموتُ الثَّانْ. أنت الآن في المكان السيّد؛ هكذا تقول الدولةُ، والعُمْلةُ، وطابعُ البريد. وبينك وما وراء البحار أمتار قليلة لتحْصُل من القناصل على ترخيصٍ بالعبور. لكنك مقهور من دولةٍ لا تثق بك، ولا تمنحك جوازاً للمرور إلى حيث تشتهي ويطيب لك. تمرُّ على باب السفارات مثلما يمرّ قطٌّ جائع أمام مَسْمَكَة، فلا تجد من الكلام غير مواءٍ داخلي، تقوله في سّرك وتمضي.

تمضي ما عنَّ لك أن تمضي بلا هدفٍ؛ كلُّ شيءٍ من المشتَهَى تَدَاعَى، ولم يَبْق لك إلا أن تشدَّ على القليل. الليلُ خليلٌ، وشريكَتُك في البيت تقاسمُك الشعور بالخسارة، وتُعَلّمُك كيف لا تخطئ حساب المبادئ. مزاجها صعب، لكن هواها مع الكوفية أوسعُ مما تتخيل. حيث ضيقوا الخناق على الكوفية، وتوعّدوا من يلتمس الوصال، وضربوا الرقابة على مكتب المنظمة، وحدها كانت تنحدر إلى زنقة سوسة وتلج المكان تحت أنظار رجال الشرطة. تحدَّتْ عيونَهم والمَنْع، وتحدَّت رجولتَك قَبْل أن تحذُوَ

حذْوها في الشجاعة. علمتْكَ الصلابةَ، ودرَّبَتْكَ على التخفُّف من أحمال الإفراط في الواقعية. كنت تقول لها إنها تركبُ المستحيل حين تجنّد الخيال في السياسة عارياً ممّا يدثِّرُهُ، فترُدُّ إن بين رأسك ولسانك فجوةٌ لا تُسَدّ. تضحك من وصفها أفكارَك بالبرجوازية الصغيرة، وتغفر لها زلّة اللسان السليط.

في كل زاويةٍ من القلب مكانٌ للآخرين. تغيَّر شيءٌ ما في عاداتك، ربّما لأنك تعوَّدْتَ طريقتها في الحياة. البيت يضجّ بالأصدقاء، وحصتُك من القراءة تَشحّ. وعليك أن تدع التأفف بعيداً عن باب البيت، لئلّا تشيِّعك بنظرتها إلى ليلٍ غائم. جرّبْتَ، في البداية، أن تستأذن الضجيج في قليل من المكوث، لكن المجاملة سمْجَة وحبْلُها قصير. ثم بدأت تُطيل المقام في كرنفال الكلام، قبل أن تُضيفَ المجالسَ إلى عاداتك. وحين كان يخلو البيت من الزحام، تشعر أن رقعة الفراغ أوسع ممّا يَمْلؤُهُ التلفاز، أونصٌّ روايةٍ مُقَطَّعُ الأوصال. للطبيعة بصمتُها في المزاج، لكن العادةَ تنشُر شريعتها في العَالَمِين، وتُنْشِئُ في النفسِ طبيعةً ثانية. وفي كل مرّةٍ تقاوم الدَّخيلَ فيك، تنسى المكابدةَ سريعاً وتؤصّله، كأنك صفحةٌ بيضاء تكتُبها الرياح حين تَهُبُّ، ويأتي عليها حينٌ من الوقت تُغْضي

عن مألوفها، وعمّا اكتسَبتْ تذبّ. هل كنت حقاً تخرُجُ من مزاجك، حين تَطْرقه السوانح، ويكتب الآخرون لك برنامجَ يومك المقدّس، أم كنت تستعيد ما ترك الزمان خلفَك من ذكريات الجامعة؟ لا جواب لديك الآن سوى أنك تفتح قلبك صادقاً لعبور القوافل، وتخزين روائح الكلام في مستودِع ذَاكِرَةٍ هاجعة.

ما عرفتَ معنى التنازل قبل أن تقترن بها، وتقترن بك. كنت في الماضي تختال في صفائك الداخلي، في حريَّةٍ حسبْتَها من الطبائع، أو هكذا تكوَّن نصُّها في بيتك العائلي: بعد أن كَبْرتَ عن الأوامر واللاءات. تنام متى شئت، وتُفيق متى شئت، وتأكل حين ترغب، وليس لإيَابِك إلى البيت مواعيد مضروبة. لم تشعر أن حريتك مسلوبة إلّا حين يداهمك موسم الامتحانات. وكان يكفي أن تمنّي النفسَ بالعطلة حتى تُشْفَى من وعكة القيود. لا حدود يرسمها الآخرون لفوضاك الجميلة، ولا سدود عندك لتجميع مياه فيضك؛ فأنت سخيٌّ في التدفُّق ما دمتَ لا تُؤْذي أحداً، ولا تشتكي منك نفسُك عن ذنْبٍ أوقَعْتَهَا فيه من فرْطِ طَيْشك. متأخراً أدركْتَ أن حبل الحرية قصير، وأن البيت ـ كالمدرسة ـ يعلّمك الانضباط للمواعيد والرسوم، كما يُذعِن الكلامُ

لقواعد المخاطبة. لم تزدرد جرعةَ الحقيقة إلّا حين ألِفْتَ طبيعتَك الثانية، وتعلَّمْت كيف تنسى وتصفح، وتفُكّ لغز الواقعية.

كان لا بدّ لك من تمرينٍ على الجمع بين نقيضين: الطبيعة والمؤسسة. فيك الحيويُّ يْطلُب حقوقه العادلة، كأيّ امرئ آخر في الدنيا، ومطالبه شحيحة: من مدِّ الليل حتى آخره على شرف نصٍّ، إلى الاعتذار عن احترام طقوس اليوميّ «المقدَّسة». وفيك ما يكفي من شحوم الواقعية كي تلبث، وتزِوّج المجاملة للعادات. ما المشكلة، إذن، في أن تراوح بين الحدَّين، باحثاً عن نقطة التوازن بين المتناقضات؟ ولا بأس من بعض البهارات لِيَلِذَّ طعمُ الطبخة في التركيبة.

هل الحياةُ عجيبة إلى هذا الحدّ؟ هي في الكتاب غيرُها في الخراب؛ هكذا قلت، حين تعلَّمت، معنى الحياة، خارج أسوار الحِبْر.

XIV

قليلٌ من الأمل يُسْرِج النفس إلى البعيد، يبدّد غيوماً تعبث بصفاءٍ طفولي كما البحر أزرق. أنت وُلِدْت خطأً في آخر آذار، لأنّك شَتَويُّ الهوى،

وتعشق الغمام، ولا تضيق به إلا حين يحوم في الخاطر بعيداً عن البصر. ويزعجك الضوء بلا حدود؛ هل لأنك فتحْتَ على جدائله المنسكبة عينين طريتيْن، أم لأن حنيناً إلى ظلمة الرحم يسْكُنك؟ على جسمك تعودْتَ أن تضع ألواناً لم تَزْورَّ عنها؛ الأسودَ، والبنيّ، والأزرقَ الكُحلي، والرماديَّ الغامق. لكن الداخل مولَعٌ بالأزرق، والأخضر، والبرتقالي، ويَضيق بالقاتم. تناقضٌ يُقيم فيك، ويُوقِدُ الشِّجار بين النفس والبدن، لكنك تعرف كيف تنّظمه مثل شرطيّ مرورٍ محترف. ولم تَعْرف، في أول الأمر، إن كان ذلك من الطبائع أو هفوةً في التركيب؛ كنت، على وجه التقريب، غامضاً في وضوحكَ، وواضحاً في غموضك، كمشهد الشمس في لحظة المَغيب. حين تعلَّمت أصول الجدل، بَدَأْتَ تدرك أن الأرومتين فيك تتماهيان، وتصنعان، كما يَصنع الوجودُ والفناءُ العناصرَ والأشياء.

للأزرق مفعولٌ في الطبيعة لا تخطِئه العين؛ هدأةُ البحر، انفعالُ العصافيرن إفراجُ الأرض عن أخضرها المكتوم، وإنبعاث نداء الشهوة من بين الجوانح. الأملُ أزرقُ الداخل الذي يُحيي الموات، ويأخذ القلب إلى كل الجهات؛ موجةٌ تعلو موجةً كي تُبْطئ

انكسارها، أو تعيدها إلى ما تحت السطح. قبَسٌ يَشقّ عتمةً أضرمتْ سوادَها في الرجاء. إمرأة تُشْعِل الرغبةَّ فيك، وتقتصد في ارتكاب الأخطاء. الأملُ ما لم يَزل يتردّد على الكون، في زيارات مفاجئة؛ يَحْمِل وعْدَهُ للذاهين إلى غدٍ مجهول، يقول في المدى المقفَل ما يقول من حكمةٍ تَفْلق الصّخر، وتقُدّ الحديد. الأمل ما تستعيد حين تَنْفَد الِمزَودة من تعاليم الكُتُب، وامتحان الزمان على جسدٍ تركْتَهُ خلفك حين تداعى الجسد.

يخامرك الأمل، أحياناً، في أن تجد الطريق إلى مُبْهَمٍ تصنعُهُ يداك. تَدَع اليأس على الوسادة كي يُكمل كابوسه الليلي، وتفرك العينين لترى وضوحكَ كلَّه، أو لتطرد بقايا النوم العالقة في أطرافك. تنهض إلى دعوةٍ مفاجئة لا تُرَدّ؛ فضيْفُك، اليوم، مميَّزٌ، أريستوقراطيٌّ في المشيةِ، والنظرة، وفي الاستلقاء أمام دهشتك. بلمسةٍ سحريةٍ يمحو من جبينك مسحة الحزن، ويبعث في الأعصاب الارتخاءَ الضروريَّ ليمُرَّ الّدم أمام حراس الحدود على على تخوم القلب. كطفلٍ، عثَر على أمّه في فوضى الزّحام، أنتَ بين يديْه تسمعُ، أو تودّع موجعةً حبَسَتْك في قمقُم من ظلام. ولا تجدُ الكلام المناسب كي تحيّيه، أو تشكره على فرصةٍ

أخرى تُمْنَحُهَا كي تُصَالِحَ ما خاصمتَهُ فيك، ليطيب في مُقَامِك المقام.

وككلِّ ضيفٍ محترم، لا يطيل ضَيْفُك المكوث معك لئلّا تشعر بالسأم. تحاول أن تستبقيه لساعةٍ أخرى، فيتسلّل من خلف الناظريْن. تُطِل من الشرفة عسى أن تراه، فلا يطالعك غيرُ شارعٍ مزدحمٍ، وطيفُ امرأةٍ يُدَحْرِجُها كعبُ حذاءٍ يرنّ في الأذنين.

تتمنى لو أنه يزورك كلّ إثنين، لتستقبل أيام الاسبوع كبُشرى يليق بها التهليل. لكن مواعيده لا تنتظم، كغمام شتاء قاسٍ إلى حدود المحبَّة؛ يَهِلُّ حين يشاء، ويباغت بلا استئذان، ولا تضيرك فوضاه ما دام يُطِلّ عليك، ولا يهجر المكان. هو سيّد المكان، وسيّد الزمان، فلا ضيْر عليه من الهبوب في اللحظة التي يختار من فراغاتِ يومه.

ما أجْمَلَه حين يَهُبّ بعد يأسٍ، كريح من خريفٍ تذكّر صيفاً قائظاً بديمقراطية الطبيعة. حينها، تنسى الذي كان يقصّ الجفنين قبل قليل، تَصْفَحُ للأمس عن إساءته، وتمضي إلى قسمتك، التي أقطعها ليومك نداءُ الأزرق، شَهْماً كسَهْمٍ قُدَّ مِنَ الفولاذ. وَتَرَ القلب مشدودٌ إلى الدنيا، ويعرف كيف يوزّع البنفسج

على اهله: للأمل أنثاهُ، وللقلب امرأةٌ تملأ ضحكتُها الفارق بين الهوى والهاوية. وهي كما هي؛ أنثى ترتّل على القلب أنشودة الحياة، وتشيّع خوفَه في قافية.

حين يهجُرك الأمل، ويُطيل الغياب، وينقطع ما بينك والكتاب من حبْل ودٍّ، لا يكون من بُدٍّ لك غير أن تَصْنَعَه، وتبعث في المفاصل نَشْوَتَه. بدأْتَ تعرف أن الأمل ليس وجبةً معلَّبةً؛ تتوفَّر، أو تشِحّ، أو تَنْفذ، في سوق القلب المزدحم. بدأْتَ تشعر أن الأمل امرأةٌ تكسبها بالغزل، وأن عليك أن تراودَهُ على سخاءٍ كي تكتب شعراً فائضاً لديْه. الأمل فيك: حين يأتيك، وحين يغيب، وعليك أن تُخرِجَه من الغِيَابَةِ كما يستخرج المشعوذ الجنّيَ من الجسد. رتِّلْ عليه قليلاً من تعاليم الشعراء والمتصوفة، وامنحه بعضَ وقْتٍ كي يطيب له الصعودُ إلى فوق، ولندائك الحيويِّ يستجيب. وهذا القلبُ، المُتْعَب، تقيِّدُهُ برجاءٍ غامضٍ، وتروّضه على التواكل، لو أرسلتَهُ من قيده، وأَطْلَقْتَ جِماحَهُ في المكان، لأرحْتَهُ من انتظار ما يُرْهِقه، وأوسَعْتَ له الطرق إلى أُنْثَاه.

للتفاؤلِ مركبٌ ومجذاف، وللبحر طريقتُه في الضيافة. وعلى القلب البشوش أن يرسل ابتسامتَهُ بلا تكلّفٍ، ليُبْحِر باحثاً عن كَنزه المطمور تحت الُّلؤلؤ. لا

أمل إلّا ما يراه القلب من خلف سحاب اليأس الملبَّد، ولا أمل إلّا ما تَبْعَثُهُ الدهشةُ في النفسِ حين تفيئ إلى طبيعتها. ولليأس حصّته من العبث بالفطرة، والتسلّط على قانون الوجود. يَضربُ، ويُدمي، ويُوجع، لكنه على صخرة القلب، كموجةٍ هوجاء، ينكسر، فيرجع عن خطيئته إنْ مَسَّه صعْقٌ من كهرباء خمرته.

قليلٌ من الأمل يكفي كي يمحوَ جبلاً من اليأس. تحتاج، فقط إلى بعض اليأس حتى تَزِن الفارق بين الحالَيْن في نفسك، حتى تتنفَّس بداهات الطبيعة في أهلها الطيّبين. في القلب كثيرٌ من المواجع، وفيه ما يُدْهِش النسيان، والغفران. ليس لحبَّةٍ أسبرين أن تُهْديك شفاءً سحرياً من حروب الزمان على الروح، لكنها تكفي لتسكين أوجاع يضرمها السفر إلى ما وراء المنظور. للأمل قولٌ مأثورٌ في اليأس: تقولُهُ القصيدة حين يجرّدها الشاعر من أغراضها، ويرسلها عَفَويةً في الغناء. الامل قصيدةٌ يلقيها الزمان على أمسه كي يودّعه، وتحملها الروح إكسيراً للرحيل. الأمل إيذانٌ بالرسالة تَصْعَد إلى فوق، لقلبك كي يكتب ما قبل السطر الأخير. والأمل بضاعةٌ فاسدة إن لم يَتناولها صدرُك في اللحظة المناسبة؛ بين سقوط نيزكٍ، وانبعاث نداء الحنين. الامل كالراهبة؛ يمنحك الشعور

بالمحبّة، ويصلّي لإلهٍ فيك يناديك كي تكون على صورته. وليس للأمل ما يأخذهُ منكَ حين يأتيكَ؛ فهو، كالماء، يكبر من داخل فيضه.

أما اليأس فغشومٌ كمحاربٍ يشغف بالمُثْلةِ؛ ثقيلٌ، هو، على القلب حين يَجْثم، وقاتلٌ كأُفْعُوَانٍ تَدُسُّ السُّمَّ في الوريد، وهو كريه الرائحة حين يلبس جلدك، ويتعرَّق في قميصك الداخلي. يأتي فلا تراه إلّا في إضراب النفس عن خارجها، وفي خمول الرأس والعضلات، وسَقَم المَعِدة والقلب. كالحرب، تُنْشِبُ مخالبَهَا في الناس، يشتعل في أعصابك ويُطْلِق الوسواس. وليس عنده ما يعتذر عنه، إلّا عن تواضعه في الفَتْك بك، كما تفتك السّوسة بحبّة سنبُل. اليأس ما يُلقيه على شارعك فراغ المعنى ممّا يجّهزهُ، وما تعرفه الخرائبُ نَصْباً لعشّ اللقلاق، واليأس دولةٌ ظالمةٌ تذبح شعباً لا يُحَدُّ من العشاق.

لو لم يكن البأسُ إلا يأساً، لما أمكن للأمل أن يشعّ، وأن ينشر في الأفق ألواحه، فيُقْرَأ ما في خزائنه من الأسرار. للأمل مفتاحهُ، كأيِّ بابٍ لا يقود إلى الغياب. وله أن يُسِرَّ بالمكنون على عجلٍ، حتى لا يصاب النازحون إليه بالملل. كفاتنةٍ تتجرد من ثوبها بهدوءٍ، يستعرض سلعته الثمينة: باقة الورد المُعَدَّةِ

للحب، مَرْهَمَ الجرح السحري، ضوءَ الخلاص في آخر النفق، مفرداتٍ لتدليك التشنج في عضْلة القلب، وقليلاً من بَخُورٍ طيّب لتطهير الخاطر من مشاعره الحزينة. الأمل فجوةٌ سريعةٌ بين ضائقتيْن، وردةٌ في حقلٍ من الشوك تُطِل على الماء، ترفع النداء إلى السماء وتطلبُ دفئا. الأمل ضحكةٌ ترسلها طفلة صغيرةٌ إلى قلبك، وفراشة تنطّ من زهرتها إلى زهرتها، والأمل قصيدةٌ فيك راقدةٌ تطلب منك شيئًا.

كنت أمَلُك في الماضي متواضعاً: أن يصدّق الآخرون أنك لا تكذب، حين تروي لهم ما سمعتَ وما رأيت في خلْوتك. كان يكفيك تواطؤ جدَّتك، لكنك طلبتَ المزيد حتى تصدّق نفسَك أكثر، وحتى تتذوق طعم الثقة في حواسّك. وحين كنتَ تتحسَّس الشكَّ في العيون والأسئلة، ينطفئ في داخلك شيءٌ لا تدري ما هو، لكن اعتكافك في الغرفة يفضحه. لم تكن قد قرأت عن اليأس، ولا عشْتَهُ، لكنه يداهِمُ ليْلَك حين تتذكّر أن أحداً، على مائدة الطعام، لم يتكلفِّ الإصْغاء لك وأنت تُمْعِن الكلام.

كنت تأمل أن ينتهي العام الدراسي سريعاً، كي تقرأ ما تشاء، كي تَصْحُوَ متأخراً عن وقتك المرصود. ليس من مذاقٍ محدودٍ للنوم في أوّل الصباح، ودبيبِ

الكسل في العضلات والمفاصل. وأنت لم تكن تفاضل بين النوم والمدرسة، لكن قليلَه الشحيحَ في أعصابك يهزمك، فَتَلْعَن في سّرِك صرامة نظامٍ لا يَهَبُك الوقت لِتَنْضبط، كالآخرين، لدرسِكْ. وكلما همَّ العام بالرحيل، تفتَّح الخيال على سعةٍ مفاجئة، كأنَّ رأسك مشدودٌ إلى الأعلى، وترنَّح التوتُّر في أصابعك العشرين. لم يكن يعكّر صفَوْ مزاجك سوى أنك تستقبل لهباً سيَلْفَح رأسك تسعين يوماً، ويُذيب فيك نشوة الفراغ.

وكنت تشتهي أن يكون العالم أجمل، ببركةِ نصٍّ ووعود مطرقةٍ ومنجل. وصرْتَ تُحْصي التجاعيد في وجه الطبقات الجاثمة، منتظراً أن يَبرَّ التاريخ بما وَعَد، ويَشْهر شهادة الوفاة. كنت تبغي أن تُشَيَّع سريعاً إلى النسيان، بلا طقوسٍ تليق بالموتى، كي يبدأ العشاق جولتهم، ويقيموا هيكلاً على الأنقاض. خامرك الأمل، طويلاً، في أن ترى ما تشتهي واضحاً، كما تراهُ في الكتب؛ فما من مسافةٍ، عندك، بين النصّ والحياة سوى ما تردّده البديهيات. لكن السحبَ داكنةٌ، والرؤيةَ شبهُ معدومة، والأفقَ سرابٌ لا تبدّده المسافات.

تعلّمت أن تقتنص الأمل بين شقوق المستحيل؛

أن تخلقه من لا شيء إذا عزَّ وامتنع، فالأمل ما اجتمع بين اليدين حين تُطْبِقَان على قليلٍ من القليل. وتعلَّمت أن تروِّض الأمل على المعنى المتواضع، كأن يكون كفُّ اليأس اسماً له تستعيره، وتديره في الرأس كما تدير الذكريات الحامضة. قليلٌ من الأمل يُسْرِج النفس إلى البعيد، يبدّد غيوماً تَعْبث بصفاءٍ طفوليّ كماء البحر أزرق. ولِدْتَ في آخر آذارَ، لأنكَ شتَويُّ الهوى، وتعشق الغمام، لكنك تَضيق بالغمام لأن الحمام لا يرسل هديله إلى أعلى، وأنت لا تجد الكلام لتكتب يوميات حزنك.

XV

سِرٌّ ما، لا تعرفه، أنْبَتَ في رأسك داليةَ التاريخ؛ ربما شتلةُ الحكاية في الطفولة المبكّرة، ربّما شغفٌ بالتلصُّص على أسرار الشعراء، وربّما لأن درس التاريخ ـ في المدرسة ـ شدَّك أكثر من غيره إلى الوراء. درَّبت نفسّك على عادات لم تَبْرَحْها: أن تمرِّن الذاكرة، عند النوم، باستعراض خزين الماضي؛ وأن تقرأ القصيدة من خارجها، لتبحث فيها عمّا وراء الشاعر؛ وأدمنْتَ، بعد أن التحيْتَ، لعبة التأمل في الشروط الموضوعية، وإضمار الذات في العموميّ،

والبحث في الماضي عن حيوانه المنويّ. كنت كَمَنْ يغامر بالواضح من أجل المُضْمَر، وكأن الذي يتدثّر بأمسه، أفصحُ في العبارة عن نفسه من نفسه! وحين اخترْتَ سبيلَ التخصّص، لم تفكّر في البَسْتَنَة، فتركت دالية التاريخ لفوضاها تنشر فيك - من دون عَرِيشَةٍ - ما يفيض عن حصتك من الذاكرة.

في كلّ خاطرة ما يجيّش النفسَ بما لم يحْدُث؛ كأنك لم تتعوَّد على أن تثبُتْ أمام نداءِ الضَروريّ فيك. أزقّةُ القلب مفتوحةٌ لعبور الماضي، ولايُقْفلها سوى النسيان، أو سَهْرةٌ طارئة على وتَر الانتباه. وكلّما أفْرَغْتَ ما غرفْتَ، فاض الحنين إلى غدير الكتاب، كما تفيض الدمعةُ عن خاطِر شحَّ من الجَلَدْ، وتلَبَّسَتْ فراغَهُ قَسَمَاتُ الاشتباه. للقلب نزوتُهُ والوَرَع، وله أن يتنقَّل، كالنحلةِ، بين رحيقيْن يَسَعَان ما يَسَعْ. لكن القلب فضوليٌ حين يَغْطِس عميقاً في قَعْرٍ أمس مصطنع، وحين يُبَايِعُ الحكاية، ويرفع عرشَها إلى فوق؛ كنَجْمَةٍ يطيب الرحيل بصحبتها. وهو بطوليٌ حين يَضْجر من لعبة البحث عن ينابيع البدايات، ويَقْبَل بقليل الشَّرح والتأويل. والتاريخُ جليلٌ كلّما تواضَع في الطلب، وسَلَّم للزمان بزمانه الذي لا يعرفه. والتاريخ سليلُ ما سبَقَهُ، وأصيلٌ في البنوَّة

والميراث حين لا يَشْطُبُهُ. لكنه يكذب على نفسه، والناس، حين يضربُ الأصفاد على غدٍ طليق لم يكتُبْه السابقون.

منذ زمنٍ بعيد، يشغلك السؤال، ويُمِضّ نومَكَ الهشّ في أوّل الفجر: هل عليٌّ وصيٌّ، أم القائل دعيٌّ؟ يعلّمك الطبريُّ أن تتريثَ في الجزم قبل تقليب الروايةِ على حدود الرأي؛ فأجدادُكَ لم يكونوا صادقين، ولم يكذبوا، لكنهم صدّقوا من صدّقوا، لأنهم قلّما كانوا يشكّون. هل للصَّولة والصولجان كلّ هذا السلطان في نفوس أهلك، وهل للتغلُّب والسيف شريعةٌ تَهَبُ الموتَ الحياة؟ يرشدك عبد الرحمان إلى بعض الجواب عن النازلة؛ فللإمامةِ أسنانٌ تمنعها، وتمنحها رقابَ العربْ، ومَنْ لا سيفَ له، لا حمام يطير من فوق أسوار قصره إلى أعلى، ويحْمِل سرَّهُ، وإن شَرُفَ النَّسَبْ. يعلّمك ابن خلدون أن لا تخون قوانين العمران، وأنت تقرأ تاريخ الماضين، وأن لا تسلّم بالمَقول إن لم تضعه في ميزان المعقول؛ فلرُبَّ سَهْوٍ في اليَقْظَةِ يوقد فتيل الطيش في التَّقَرّي، فتطالع سرَّك في الماضي مثلما العرّافة تقرأ طالعكَ في الفنجان!

منذ زمن، بعيدٍ، اختلفنا على الوصية والاختيار،

وانقسمنا على حدود الفارق بين وراثتين: واحدةٌ باسم النبيّ، وثانيةٌ باسم السلطان. وكان ما كان من حروب «الجمل»، و«صفّين»، و«النهروان». وخرجنا من مهرجان الدَّم متعبين؛ نجُرّ خَلْفَنا قتْلَانا، ونجُرّ أحزاناً ككؤوسٍ مترعَةٍ بالهباء: يشرب نخبها شعب يعود إلى غمده بخفّيْ حُنَيْن: كنا جيشيْن، وفكرتيْن تَحْتَربان، وتوزّعان اليقين بالتساوي بين أتباع المذهبيْن. أصغرُنا أكبرُنا، وأكبرُنا الأصغرُ، والنائحات يَلْفَحن الأسماع بصواتٍ تحسبه الإيذانَ بالقيامة.

لم نطلب السلامة، وما منحناها لأحدٍ. ومن بلدٍ إلى بلدٍ تَتنقّل فتنتُنَا، وغصّتنا، كأن حصّتها من البقاء لا تَنْفَد. حاراتُ الروح مُقْفِرَةٌ، كالصحراء لا تجد الذي يقطنها، أو يَمُرّ بها إلّا عرضاً، والذكرى مُثْخَنَةٌ بالضِّغْنِ والسواد. وبماذا تنفع الذاكرة، إن كان عليها أن تَهَبَ النشيج مادَّته، وتزوِّدَهُ بالمِداد؟ سيأتيك غدٌ ـ يقثول كتاب التاريخ ـ يعيد في عصرك ما مضى؛ من لهْوٍ على تخومِ الوجود، من قَرَفٍ من مشهد الخرائب، من شغفٍ برقصة الموت، ومن كلامٍ قاتلٍ بلا صوت. وسيأتيك أبطالٌ، لم تعرف لهم مَنبِتاً، يؤدُّون للشعر تحيةَ الوداع، ويذبحون للدم القرابين. كتاب التاريخ لا يخطِئ دائماً تقديم الموعظة، ولا

يَعبث بالوافدين على مائدة الدنيا من العابرين، حين يبشّرهم بالصراع، وبمَذْبحٍ لإطعام الجائعين بذبائح الهاوية. لا يكذب التاريخ إلّا على من يصدّقُهُ، ويرفعُه إلى مقام اليقين. لكنه لا يكذِّبُ نفسَه حين يعود إلى سيرته، بعد موته، وكأنه ـ فجأةً ـ وُلِدَ في الحين، واستقرَّ في الزاوية.

لِيَبْقَ التاريخُ حيث هو ـ تقول ـ شاهداً على ماضٍ لن يَعود؛ فلا أحدَ جاهزٌ للاعتبار بدرسٍ رديءٍ يبشّر الخليقَةَ بما سَلَفْ. وليس من خَلَفْ يبحث في الخرائب عن غدِهِ، وفي يده مفتاح الأفق. لم تكن ترى إلّا ما تبتغي أن تراهُ وحْدَك، أو مع رهطٍ من النُّظّار شدَّك. لم تصدِّق غير ما تقولوه الأرقام والنِّسَب، ودياناتٌ جديدةٌ تعبُدُها عقول النُّخَبْ. طويْتَ الصحائفَ، ونبذْتَ الخرائف، وكَنَسْتَ البطولات الزائفة من فِناء رأسك، وطلبتَ لنفسك ما يطلبه الذاهبون إلى غدهم واثقين: بُوصَلةً لا تخطئ الوجهة، وتعاليم نصٍّ من ذهبْ.

التاريخ يُقْرأ كي يُنْسَى ويُجَبّ؛ هكذا صرتَ تقول حين اعتنقْتَ الحتمية. ليس للماضي مكانٌ للإقامة إلّا بين شقوق الخوف، وأنتَ لستَ خائفاً لِتَحِنّ، أو لِتَضنَّ على الحُلُم بوفرة الإمكان. يغريك الزمانُ

بتقطيعه شرائح، كالبصل، وانتخاب آخِرِهِ لابتداء التقويم. لكلّ شعبٍ بدايتُه في الزمان؛ بها يؤرّخ ويدوِّن، وأنت من شعب يولَدُ من بركان، وعليه أن يأخذ حصّته في عالمٍ تتنازعه قوَّتان، ويَسَّاقط فيه مَنْ لا يَقْوَى على القيام. وفي كل مرَّة يقاسمُك الخيالُ تصوير شكل الغد، وفي كل مرةٍ بطلٌ يملأ المكان ويرسم على المشهد رمزه؛ منجلٌ، أو مطرقة، أو كوفيةٌ. . . ؛ وليس ليقينك حدودٌ ماديةٌ للترجُّل عن جناح الطير؛ وليس للغير على جموحك سلطان، فأنت، أنتَ ما يقول الزمان.

لكن الزمان قال ما لم يكن في الحسبان! وأخرج المخبَّأَ في جوفه، كما تُخْرِج ساحرةُ الأسطورةِ الجَسَدَ من طلاسمه حياً. هل كان الماضي شيًّا غير ما تراه، الآن، على مسرح يومك؟ هل كان في ظنِّك أن ما كان سيكون، وأن القدامى، بعد هنيهةٍ، سيخرجون إلى هواياتهم وما ألِفوا؟ تسأل، ثم تسأل، ما طاب لك السؤال عن المجهول.

سِرٌّ ما، بتَّ تعرفه، يبني للتاريخ عشّاً في رأسك: منه تُطِلُ عليه وعليك، وفيه تردِّد حكمة القدامى عن أيامهم حين يُفْجَعون. ها أنت تراهم يرجعون، ويملؤون المكان والليل، ويصوّبون الكلام نحو

الخيام. شيءٌ ما يوحي إليك بأن أزمنةَ اللغة راقدةٌ في قواعدها، وأن مَن يشبهُها ذاهبٌ، مثلها، نحو الختام.

XVI

على حجَرٍ حملوا بِشارتَهم، وانحدروا إلى الوادي. ليس في الليل من لحافٍ إلّا الليل، والنجمَ يضيء المسافةَ بين الخطوتيْن. الغذاء شحيحٌ، كالعادة، خارج البيت، والماء كبريتٌ أحمر، وليس بين اليديْن من المصير إلّا ما تعجنه اليدان، وتَعِدُ به فُوَّهةً أغلى من رحيق العنبر، وأدنى للقلب من المقلتين. الريح تُصَفِّر في الخلاء الرَّحب، وتَكْسِر وحشة النفس في هباء المطلق، والأمعاءُ خاويةٌ إلّا مما يجعل العشبَ وجبةً ذهبية. لم يخطر ببال أحدٍ أن يحمل الزّاد الكافي، لئلّا يدرّبه إخمادُ جذوَةُ الجوعِ على النوم المبكّر. تلك طريقةٌ فذّة لتوزيع الواجبات، بالتوازن، بين الطبيعة والصناعة، بين جَسَدٍ وروحٍ عليه تعلو.

لكلِّ كوفيةٍ، على رأسٍ متلفِّعَة، أسرارُها. ولها اسمٌ ولقبٌ، وذاكرةٌ تُصيب أو تُخطئ الذكرى. ولها ما أجرى الزمان على صاحبها من الأقدار. لها حكايةُ الأهل في المساءات، ولها ما حصدتْ من الخيبات.

لها المكانُ الذي يَهَبُ المكان، ويَحْرُس على مدخله ما ترك الغائبون من أغراض، ولها من الأسماء ما يتنفَّل عَدُّه بلغة الحساب، ومفردات الكليات والأبعاض.

تحت كلِّ كوفيةٍ، على رأسٍ متلفعةٍ، نصٌّ حوار لا ينتهي مع النفس؛ على ما كَسَبَتْ، وما حسِبَت، وعلى حصَّتها من الأملِ المؤجَّل. على صخرةٍ، أو تحت ظلِّ شجرةِ بلّوطٍ أو عرعار، أو في حلكةِ ليلٍ لا يضيئه سوى الخيال الحرّ، يدور الحوار؛ يأخذ وقتَه والمسافة، فيمُرّ بأزمنة خصوصية يستذكرها؛ الطفولةُ كانت شقيّة، لأنها نبَتت في حقلٍ ضيّقٍ تحت الخيام، أو بين أقفاص من القصدير والطوب، المهيَّأ على عجَلٍ، لإعداد المكان. ليس من حدائق أو لُعَبٍ لتنمية الخيال، وتدريب الصّبا على استهلاك حصّته من الزمان. ومدارس «الأونروا» لا تكفي مساحتُها الشحيحةُ لإطلاق الجسد خارج قيْده والزِّحامِ، ولتعليم الصغار درس المنافسة البدنية. ومُنْتَهى الطلب أن يحْصُل كلٌّ على حصته من الخشب، ويَصْنع بندقية، ليَتشبَّه بأخٍ أكبر، أو أبٍ، أو عمّ، نَسِيَتْهُ الطفولة حين مرَّت على أبواب المخيَّم، فأجَّلَها إلى مَن يأتي بعدهُ غداً.

والمراهقة تجربةٌ مرهقة، لِمَنْ يَحْظى بها، فلا تفِرُّ منه، كما فرَّتِ الطفولة. لكنها عدمٌ حين يُجبرك النداء على أن تكبر أكثر، وتَحْمل عن أسرةٍ صغيرةٍ همَّ والدٍ قضى وطراً من الدنيا وخَفَّ للشهادة. المراهقةُ وسادةْ لنوم سريعٍ تحت سقف المفاجآت، وهي أبْهى حين تتعلّم كيف تروي سيرةَ وطنٍ لم تَرَهُ، لكن تحفظهُ كنصٍّ مدرسِيٍّ مدهِش.

والشباب يمرُّ، سريعاً، مثل السحاب، فلا يترك ما يدُلُّ عليه غير عضلاتٍ صقلتها دورةٌ تدريبية، ووشمٌ لخريطة الوطن على الذراع. الشباب لحظة الصراع الثانية مع المجهول، من أجل أمَلٍ ينبت على قارعةِ الطريق إلى غدٍ بعيد، وزاوية أخرى للتأمل في ما مضى من المقتول. للشباب دمٌ عزيزٌ يقدّمه للأهل؛ قرباناً لذكرى جدٍّ رَوَى عن أرضٍ فُقِدت ذاتَ نهارٍ حامض، ، وارتَحل عنها القاطنون إلى المنفى. الشبابُ مَشْفًى للمخيِّم ومدرسة، منظارٌ للتحديق في ما لا يُرى بالعين المجرِّدة، والشباب إكليلٌ على رأس شعبٍ يولَدُ في الحطام، ويكبر في الزحام، ويقاوم تشرُّدَه.

تحت كلِّ كوفيةٍ قصيدةُ شِعْرٍ رَقَدَتْ في المشاعر، وهزَّت وتراً في الخيال، وتألَّقت كزمرُّدة؛

تحت كلّ كوفية تَرِنُّ حروفُ الوطن السداسية،
كما يِرنُّ فلْسٌ على طيفٍ يابسٍ، أوعلى اسفلْتِ بيت؛

تحت كّل كوفيةٍ بقايا أغنية من ذاكرة الغَجَر،
يُشعلها في البال عصفورٌ حائرُ بين السِّرب وإغراء
السفر؛

تحت كلّ كوفية حُلم لم يتحقق بَعْدُ لكنه يَعِدُ
الطبيعة بأن يعيد إلى فوضاها النظام؛

تحت كل كوفية فكرةٌ لا يهزمها أحدٌ، وإن
تكالبت عليها مَوَاقِدُ المواجع في الظلام؛

تحت كل كوفيةٍ كوفيةٌ: ترِث عن أمّها أسرار
الصنعة، وتُتْقِن شهوتَها الاثيرةَ في صناعة الرجال.

وينحدرون إلى الوادي، وعلى حجَرٍ يحملون
بشارتهم. لا أحد يشيّعهم في الطريق سوى النجزم
تَهْبط على خَطْوِهم وهم يتقدمون.

يذهبون إلى هدفٍ يعرفونه، مذ كانوا صغاراً،
ولكنهم بالعودة هُمْ ليسوا موقنين. يتركون خَلْفَهم وراء
ظهورهم، ولا يلتفتون إلّا عند الضرورة، كأن يتأكدوا
أن أحداً لم يُنْسَ في الرحلة، وأن المكان مأمونٌ من
المكامن، ومأهولٌ بأصوات الذين يحبونهم.

يذهبون إلى غدٍ غامض إلّا من وضوحٍ داخليّ يقول: تقدَّموا، فالطريق سالكة إلى ما تشتهون. كم من قلب معهم يحملونه بين قلوبهم؛ كم من سرٍّ في الداخل يناجي صمتهم؛ كم لهم من الوقت كي يذكِّروا الأحبَّة بأبجدية الجغرافيا: الراحل عائدٌ، والعَوْد إلى الأصل أصل، أما الذهاب فَاسْمٌ آخر لوصف المعنى من خارجه.

ومن خارج الصورة، تفقد الصورةُ دمَها، ودفْق الدفء فيها، فلا تكون للرائي غير ما تُرِيهِ إيّاه. والرؤيةُ محايدة كلما ابتعدت عن مَرْئيِّها، وأوثَقَتْهُ في إطار، وقد تكون باهتةً حين تخطئ قراءة الأبجدية في نص الحقيقة. والعودةُ حقيقةٌ تَجُبُّ اللجوء وتهزمه، وتردُّهُ إلى أخطاء وقعتْ فيها سهواً، حين مرَّت بحادثةٍ غامضة. والصورةُ فائضة بما تُكِنُّه، إن ولَجْتَ داخلَها من الباب، وهي كالسحاب لا يُفْرِجُ عن سائِلِهِ حين يمر من بعيد. والذاهب، تحت كوفيةٍ تتسع في الأفق، عائِدٌ ولو طالتِ الرحلةُ، وتوحَّلَتِ الجملةُ في نصٍّ رديءٍ لا يُفيد.

عشِقْتَ الكوفيةَ مُذْ غادرْتَ صباكَ، محتلماً، ويمَّمْتَ صوبَ المراهقة. ولم تعرِف للشغف ما يفسِّر سرَّهُ، سوى أن الثوب المرقَّطَ يوقِظ في العين حاسَّة

التَّذَوُّقِ، ويوقِدُ في الكلام فتائلَ مهملَة. على أثافي اللغة، كنت تَضَع قِدْر القصيدة بهدوء، وتُمْهِله الوقتَ الطويل لينضج تحت حرارة شمعةْ. ولا بأس من دمعةْ تذرفها على شرف القصيدة، كي تأخذ حصتها من الملح. الكوفية عذراء لم توطَئ، ولم يمسسها بشرٌ لم تَأْذَن له الطبيعةُ بالإباحة. كلّما حدَّقْتَ فيها، فاضت خرائِطُها المكنونة عن العدّ، ووهبتْك مساحةً للتأمل في الملكوت لا تُحَدّ. وحين تدخل في القصيدة، تَلِذّ صورتُها أكثر، وتأخذ أناقَتَها في الحديث.

في القليل ممَّا شاهدت من صُوَرٍ عن العذراء، كنت دائماً تضع على رأسها كوفية، هكذا يشطح خيالُك في البعيد، وترى المشهدَ واضحاً بلا مساحيق. وفي الكثير مما تلقيتَ من صوت فيروز، تطالعك الكوفيةُ كستارةٍ تغطي المعبدَ المقدَّس وتَحْمِله على فرسٍ شهباء. كأن الصدى يمتدّ بعيداً إلى خارج المكان، ويصنع من ذبذباته درجاً للصعود إلى أعلى، كأن الهاوية تدعو الأسى إلى حتفه، وتربط خيْلَ الفرح بسَرْوٍ كي يستريح من الجموح. في الكوفية ما يكفي من الوضوح لِتُفْصِح البلاد عمَّا تخبِّئُ من وعودٍ لا تُطِلقها جزافاً في الفجر، ولا تُمْسكها عن العشق حين تمسّهم رائحة البعيد. وفي الكوفية من البساطة ما يشبه

حاملها في الطريق إلى المكان الأوّل من رحلته، ومن بيت القصيد في هذا النشيد.

لم يَرُق لك الأبيض إلّا في الكوفية؛ الأبيض لونٌ لا يريحُ المعنى في مقصوده، ولا يوقظ في القلب عاطفةً أبدية. الأبيض للكَفَنِ وللحداد، وقد يكونَ فيه من الحياد ما يُضجر، وما يُضمر في النفس الفجيعة: وثوب الزفاف أبيض، لكنه يكذب على الشريكين حين يختليان، أو يتخذان الظلامَ السادَر في الظلامَ سِتْراً للوقيعة. في بياض الكوفية بريق يُشْبع العين. لعلّ السواد، الذي يُجَلّله، يرفعه فوق نصاب الحياد الغبيّ، ويبعثه في شكل جديد. ثياب العيد، إذْ تملأ الروح بالفرح المقطَّر، هي الكوفية. علمٌ يرفرف فوق شرفات تُطِل على غدٍ واضح هي الكوفية. امرأةٌ جميلة تعزيك في أمسٍ حزين هي، وهي عنوانٌ لرحلةٍ تمتدّ من أرضٍ إلى أرضٍ باركتها الكتب السماوية.

مثلَ «الكاريان» حسبْتَ المخيَّمَ حين قرأتَ عنه، ولم تَرَهُ. الصورةُ في «الحرية» و«الهدف» غيرُ المتخَيَّلِ على إيقاع إيحائِها. اكتَشَفْتَ، بعد العيان، أن «الكاريان» أكثر «آدميةً» من مقابر الشتات. هكذا، على الأقل، بَدَتْ لكَ المقارنةُ بين المكانينِ حين اكتشفته في لبنان. في «عين الحلوة»، و«الرشيدية»،

و«برج البراجنة» و«شاتيلا»، و«البداوي»، و«نهر البارد»...، كل شيءٍ شاهد على جريمةٍ لم تَشهَد، بَعْدُ، نهايتَها. «آخِرُها»، كأوّلِها، لم يَكْتَمِل ليقول ما في جعبته من العار الأبديّ؛ فثمة الكثير مما تُفْصِح عنه حياةٌ كأنها موتٌ تدبّ وتَحْيَا في الفلاة. في اللغةِ عِيٌّ يُلَعْثِمُها، وفي الصورة بلاغةٌ لم يبلغها شاعر، ولا سمحت بها دواة. وليس على الآدميةِ حرجٌ إنْ سُرِقَتْ من أهلها في جُنْحِ ليل، لكنها تشكو من ضَيْم الشقيق إذا تَحَيَّفَ، وأَرْسَل في كِبْرِهِ جِمَاح خيْل. العدوُّ واضح، و«الشقيق» غامض، وقد يختلفان على كل شيء إلا على دمه المباح، أو على ظلمة يقطعها وهو ـ وحده في المكان الموحش ـ رابض.

في «الكاريان»؛ أنت على أرضكَ وإن جَار بك الزمان، وتناقَصَ في حياتك معدَّل الآدميةِّ، وتَنَاهَبَ حقَّكَ المُتْرَفون. وفي المخيَّم؛ أنت على أرض غيرِك، وربّما كنتَ على أرضك، لكن السلطتين تتقاسمان البطولةَ على دمك في المشهد الأخرويّ. يُفجعك أن ترى الكوفية ملوَّنة بدم أخويّ، ومُجَعْلَكَةٌ بعصير المزابل. الكوفيةُ التي تقاتل نيابةً عن الخُرْس الطالبين لِـ «السلامة»، تُلقَى على قارعةٍ طريقٍ لا تؤدي إلّا إلى القيامة! ويَغْلي في دمك الدّم، كأنّك قطٌّ متحفّز

للدفاع عن حصّته الصغيرة من الوجود. والعدوانُ، الذي ترمُقُه بنظرةٍ غيظٍ مكتومةٍ، لا محدود، ولا يُبْصِره الجنديُّ حين يطلب هويَّتك على باب المخيّم، ويستبقي انتظارَك طويلاً في انتظار أمرٍ سِرُّهُ عليك مُبْهم. تسأله يائساً إن كنتَ ستدخُل فلسطين أم مخيَّماً لاجئاً، فيرميك بنظرةٍ تشبه الرصاصةَ في المفعول!

لم تكن تقولُ، قبل أن ترى المخيّم، إن العروبةَ حمَّالةُ أوجه، وإنّ في دمها بعض الكَيْدِ لنفسها، ككَيْد المرأةِ لضّرتها؛ كنت تحسَبُها واحدةً وإن تنوَّعتِ الخطوبُ في الجهات. خذلتْك معانيها حين رأيْتَهَا تمشي على قدميْن على باب المخيم، وتعلِّق الكوفية على الصليب. عزَّيت نفسك بأن من يعلّق يسوع عليه، يسيرٌ عليه أن يعلّق أحفاده. لكن «جنودَهُ» في أرض كنعان يحرسون «الهيكل» من دون أن يدرون؛ «فاغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون»!

على حجر حملوا بِشارتهم، وانحدروا إلى الوادي. وحدها كوفيةٌ، في الأفقِ المسيَّج بالحنينِ الى أوّلِ التكوين، تدُلُّ عليهم كما يدُلّ الإعرابُ على الضمائر في جملةٍ فعلية. يمضون إلى غدٍ يُبْصِرونه وحدهم، كما يُبْصِر الصوفيُّ ملكوتَهُ في لحظة كشفٍ إشراقية. نرمقهم من بعيد؛ على شاشةٍ مُنْصِفَةٍ، أو في

تقريرٍ جافٍّ لمراسلٍ أخطأ الطريق إلى حتفه، وفي حنينٍ، يسكُن النفسَ، الى البطولة، أو في فِنَاءٍ يَرْقُد في صورةٍ فوتوغرافية. الكوفيةُ هيَ هيَ؛ حجابٌ لرأسٍ جامحة إلى ما يجعلها لغةً خصوصيةً لنُطْقِ التاريخ بالحقيقة المحجوبة؛ بَتُولٌ مصلوبة على خشبة ابنتها المَرْيِمِيّ؛ خِرقَةٌ تحترف اختراق المدى إلى حدِّه، وتُلَوِّن الأفقَ المُقْفَلَ بأزرقٍ يفتَحُه على اللانهائيِّ ما بين المأساةِ والمؤاساة من جدلٍ ملحميّ.

دخـولُ الخـروج

XVII

مثل ربيعٍ يَتَسَلَّل من بين خيوط شمسٍ إلى هَجْعَتِهِ، يتصرَّمُ ربيعُك، وتستقبل صيفاً لا يَنْضِج فيك إلّا الأقلّ مما أنْبَتَهُ الشباب. الشيب يزحف على الفوديْن كمَا تزحف الصّفرة على السنابل في آخر أيَّار، وليس لديك الكثيرُ مما تختار أمام حُكْمِ الطبيعة. لك الحلمُ كلُّه ملعباً للرحيل في البعيد، لتقليب الرغبة على أيّ الجهات تشاء، وللزمن شريعةٌ لا تخطئ موعدها، مع أهلها، ولا تحترف البقاء شاردةً كعاطلٍ عن العمل. منذ الأزل، يكرّر الزمان دورتَه؛ يبدأ من حيث ينتهي، ويعيد سيرته، وحُكْمَه، وحكمتَه، بلا ملل. كم من زائرٍ مرَّ من تحت عباءته، وأقام ماشاء له من الإقامة، ثم ودَّع متأخراً، أو مبكّراً، ما طابَ له من الدنيا، ورَحَل.

صيفُ العُمر مؤْذِنٌ بالخريف، واكتمال الدورة، والقسمةِ من الطبيعةِ والرغيف. وهو خصوصيٌّ كثيراً، وحميميٌّ كالسّرِّ المخبَّإِ بيْن شقوق القلب. وكما يتعرى

الجَسَدُ، بحشمةٍ، ليتلقى حصّته من الضوء، ويطْرُد عنه ضوضاء الحرارة قليلاً، يتعرّى داخِلُكَ لداخِلِك، في صيفهما، ليؤدِّيَ واجبَ الحسابْ. ليس لِحَظِّكَ بابْ تَفْتَحُهُ المصادفة لِتَفِرَّ من السؤال عمَّا تذوَّقْتَ وأذَقْتَ في الماضي، فأنتَ في صيفِك الشرطيُّ، والظنينُ، وأنتَ لِجُنَاحِكَ القاضي. وليس لغيرِكَ عليكَ حقُّ الاحتساب، سوى ما تبطَّن فيك من تعاليم الله، والأهل، ومازَّودَكَ الكتاب. أنت توشِك أن تُصَالح نفسَك، في ما قبل خريف العمر، وتغفر للماضي زلّاته الصغيرة، كما تغفر الأمُّ للأبناء أوجاع الولادة؛ فليس يُرضيك غيرُ التّسامحِ مع ما يتيسَّر حمْلُهُ في سفْرةِ الروح الى الصفاء الأوّل، وليس يُغْنِيك عن السلام مع الأشياء قِلَادة. والصيفُ أصدقُ إبناءً من الكتبِ، وهو مرآةٌ تقرأُ فيها كتابَ عهدٍ مضَى فيك، وأمضَيْتَهُ، مثلما شئت، وفي ظَلْمَتِكَ الظَّلْماءِ لم يَغِبِ.

الخوفُ من الخريفِ فقرةٌ في نص الصراحةِ لا مجاز فيها ولا استعارة. تتعرّى الكينونةُ كما تتعرى الأشجار من أوراقٍ هَزُلت، وتُصْغي صاغرةً ـ لطقس جنّاز في أوتار قيتارة. أيُّ شيئٍ في أيّ شيئٍ يتجسَّد، والحنين يَعْوي في فلاةِ الذكرى، والماء يتجلَّد؛ باحثاً عن رقْدَةٍ تُعْفِيه من سيولته الأبديّة، ومن مهنةِ الإيحاء

بالخلود. وفي الزقاق الضيّق للعبارة، يقول الكلام ما لا تَجُودُ به القريحة، ولا يَبْعَثُه الزحام اللامحدود؛ كأنّ اللغةَ أصيبَتْ بنزلةِ بَرْدٍ، والمعنى الليْليَّ زَادَ عن أحمالِها، وعنها تَوَلَّى إلى وجهةٍ أخرى، ولاذَ بالجَسَد. الخوفُ من الخريف يُحَارب هاجسَهُ من دون ذخيرةٍ حيَّةٍ، أو مَدَد؛ هو كالربوةِ يُطِل منها العابرون على وهدةٍ سحيقة؛ هو الحقيقة وقد اقتربت من موعدها مع غيرها، وأبْرَدتْ لِلّقاء بريدَها. وللحقيقة في صيْفها ما ليس لها في شتائها: الهُجاسُ من القادم، والانتظارُ الرَّخْوُ، وليس لها من صحْوٍ يَتَلبَّسها في كالحٍ مُتَلَبِّد، ولا من حقٍّ في إبداءِ أملٍ متشدِّد؛ فما كان أغْناها عن البلاغة لِتفْصِح عن وضوحها القاسي من غيرِ عناء.

مخيفٌ خريفُ العُمْرِ لناظِره، وكئيبَةٌ طَلْعَتُه كصَلْعَةِ الطبيعةِ والشَجَر في التِّشْرِينَيْن. للمرءِ أن يؤجِّلَهُ بالشجاعة والكلماتِ، فيُمْضِي صَيْفَ الجَسَد بربيع الروح، كأنَّه يَخْتَلس النَّصرَ بين هزيمتيْن. وله أن يَسْتَمْهاه وقتاً قليلاً لينظِّم بقاياهُ المبعثَرةَ، ويكتب وصيَّتَهُ لِمن يأتي بعدَه، ويودّع الزمان بابتسامةِ عرفانٍ تليقُ به، أو بقصيدةٍ متقشفةٍ من بيتَيْن. للصيْف أن يطول قليلاً، ويمتدَّ بشيءٍ من السخاء والتسامح، إن كان في النفس بقيةٌ منَ التفاؤل، لكن الخريف على

الباب وإن تَخَجَّل من الدخول، وتَبَذَّخَ في البُطْءِ. وليس له الكثير من الوقت لِيُنْفِقَهُ في المجاملة؛ فللطبيعة أحكامُها، وعليه أن يؤدِّيَ واجبَه كعسكريّ محترِف.

اكْتَهَلْتَ، مبكِّراً مُذْ غزاك الشيبُ في آخِر العشرين. ما كنتَ على يقين أن ما يتسرّب، من بين شقوقِ الأيام، مثلما يتسرب الماء، خُفيةً، من بين الأصابع. كبرت سريعاً، كالنبات البريّ، على ضفافِ جِيلِيَّةٍ لم تُمَيّز بين أحقابها. غادرْتَ المراهقَةَ مبكّراً، ولم تأخذ منها إلّا الأقلّ؛ وودَّعتَ شباباً حسبْتَهُ طويلاً كشَعَر رأسِكَ في أوّل العشرين، وكليْلٍ كنتَ تُتْقِن مدَّهُ حتى آخر الليل. ولم تَمَلّ من البحث الّهْل عن الطرق إلى الكهولة قبل موعدها، مثلما كنت تبحث في أوّل شتلة القمح عن السنبلة. اختَرْتَ أن تذهب في طريق الجُلْجُلَة قبل أن تُقَلِّب الرؤيا على جنبات الممكن، وتتعلم كيف لا تؤلّف جملةً مفيدةً، وتفُكَّ لغزاً في السياسة عصيّاً: كما يَفُك خبيرُ السلاح لغْماً وقنبلة. استعجلتَ الرُّشْدَ والرجولةَ مثلما كنت شغوفاً بإستعجال نهاية روايةٍ من بدايتها، ولم تُدْرِكْ أن الطفولة ترقُد فيك صامتةً، وتسْكن الشغاف كشهوةٍ مؤجَّلَة.

ماذا عساك، اليوم، تفعل في صيفٍ يوشك أن يُنْهِيَ حصَّته من الوقت؟ الخريف يقترب، ويضطرب الفؤاد لما مضى منصرفاً إلى غمده، ولِمَا سوف يجيءُ مَجِيءَ التوقُّع أو مجيءَ الصُّدَف. وليس من أخطاء اللغة أن تُجَانِسَ الألفاظُ معانيها، فتُبِينُ عمَّا فيها، كأن تقول أن آخر الخريفِ الخَرَف؛ إذْ ليس من التَّرَف أن يَنْسُجَ اللسانُ الأشياء من الكلمات، فقد لا تكون المشتقَّات غير شقيقان استكثرنا عليهن المصادفة.

من حُسن الصُّدف أن الخَرَف بعيدٌ موعدُهُ منك وإن خِلْتَ أنه أزف. لكنك لا تعرف متى يتصرَّم صيْفُك، ويبدأ عَدُّكَ عكساً. لا تقول ما تقولُ يأساً، لكن للأيام سيولة ماءٍ لا يَحْجزُها جسمٌ، وللحتمية عرشٌ في مملكة الطبيعة. ستدنو النهاية كما يدنو ختامُ جملةٍ في آخر السطر، وسيُفْسِح الزمان مكاناً لِتَتْلوَ النواميسُ شرائعها على الأشياء، وتزورك حكمتُها في أرذل العمر. لك بعضُ الوقتِ: يومَك والغد، وفي وسْعِك أن تستفيد من السَّماح لتنظِّم مغيبَ شمسك على مهلٍ؛ كأن تعتذر للطبيعة عمّا اقترفْتَ من الفوضى، وما طلبتْ يداك من متاعِ الآخرين؛ كأنْ تُصَالِحَ اليائسين من الخلود على شروط التنازل عن حَقّ البقاء، وعِشْقِ الأبدية؛ كأن تُسَلّم أنّ في قَدَمِ

الغجرية رائحةَ الزمنِ المستعار، على عجلٍ، في رقصةٍ لا تودِّعُ، إذْ تودّعُ غير إيقاعها. للنهاية نكهتُها حين تطرق باب كهفك في اللحظة المناسبة. ولك أن تستأذنها في التريُّث قليلاً حتى تنهيَ جدلاً بدأْتَهُ مع نفسِك، في صيفك؛ أن تكتب قصيدتَك الأخيرةَ وتمهر يومها بتاريخ أمْسِك، كما مهرْت عقدَ زواجك بالفَرَح. وليس من بأسٍ عليك إن أطَلْتَ بعضَ المكوثِ خائباً قبل الرحيل، ومنَحْتَ الدنيا شعوراً بالانتصار عليك؛ فقد لا يكون لديك ما تخسره كثيراً، في معرض الخسران، سوى امرأة ضاعت من شِبَاك قصيدةٍ، ونزوةٍ سكنَتْك في الماضي، ثم طواها النسيان.

للخريفِ وقْعُ الرهبةِ في النفس حين يقترب؛ تعشقه، عادةً، بعد أن يُصيبَك من الصيفِ أذاهُ، ويهتاج البدنُ لرطوبةٍ باردة، أو لهبَّةِ ريحٍ مُؤذنةٍ بالرذاذ. لكن خريف عمرك مختلف عن خريف العام، وليس له من الدوام مالفصولِ الطبيعة؛ فهو لمَّرةٍ وحيدةٍ يأتي وينصرم: كما ينصرم الكلام عن اللسان فلا يعود إلى موجته. والخرف في غُرَّتِهِ مستساغ، ما دام في جعبته ما يعطيكَ من السلام؛ فلقد يكفيك أن تَطْلُب بعضَ الأمان من المفاجأة، كي تستهلك حصَّتك من الزمن الباقي لك، قبل أن تسَلِّم بالواقعة.

والحياة رائعة، إن وضَعْتَ عنها المطلقَ المستحيل، وغَنِمْتَ ما في حِمْلِها من كنوز لا تُدركها إلّا في ساعة إملاق؛ هي لحظةُ إشراقٍ ندركُها في آخر المساء، بعد أن يتهدَّل وجْهُ النهار، وتركبُه التجاعيد؛ هي الترياق نبحث عنه بعد أن يفعل الزمن فينا ما يفعله المحارب؛ هي التقاليد تسلّم مقاليد النظام لمن سيأتي بعد قليل؛ وهي التي لا تحاسب عاشقها على خيانةٍ تُتْقنها كما لا تُتْقِن غيرها. لو لم تكُنِ الحياةُ إلّا امرأةً، وكتاباً، وخيالاً، وقصيدةً، وموسيقا، لكان ذلك يكفيها كي تتبرَّج في مديح زينتها، وترميك بطرف ثوبها ضاحكةً وأنت تعاكسها، أو تراودها، أو تبكيها، وتنتعل الزقّاقا. لكنّ الحياة كاذبةٌ عليك حين تُلْقِي بفتنتها بين يديْك، وتقول لك: هِيْتَ لكْ. فأنتَ ليس لكْ ما تأخذُ منها غير برهةٍ سريعة لن تتذكَّرها.

ولكنّ الحياة عادلةٌ في العطاء، كأيِّ خليفةٍ مُقْسِطٍ قرأْتَ عنه في تاريخ المدرسة؛ فهي تَهَبَ الجميعَ الحقَّ فيها، وكلٌّ وما ملكَتْ يَمينُه منها. وهي ديمقراطيةٌ في سيرتها؛ إذْ تترك لمفعول التداول أن يَسْرِيَ في الطبيعة والناس لِتَعُمّ نعمتُها، وتَعُمَّ الفائدة، والقاعدة أن لا شيء يبقى على الأرض من دون حُكْمِ المِكْنَسة.

مثل ربيعٍ يتسلّل من بين خيوطِ شمْسٍ إلى هجْعته، يتصرَّم ربيعُك، وتستقبل صيفاً لا يُنضِج فيك إلّا الأقلَّ ممّا أنْبَتَهُ الشباب. الشيب يَزْحفُ على الفوديْن كما تَزْحفُ الصفرة على السنابل في آخر أيّار، وليس لديك الكثيرُ ممّا تختار أمام حكم الطبيعة. لك القليلُ من الوقتِ كي تُنْهيَ ما بدأتَ من الحُلُمِ الطويل قبل أن تُعي إلى الزمان ما ترك لديك من وديعة.

XVIII

أخْطَأَكَ الموتُ مرتيْن؛ مَرَّ بقُربكَ وتجاهَلَكْ. كنتَ صيْداً سهْلاً في جيشٍ من الطرائدِ دانَتْ رقابُه، وكان يكفيك بعضٌ قليلٌ من المصادفةِ كي تُشبع نهماً للإبادةِ قَالَتْهُ الطائراتُ والقذائف على طريقتها. هي بضعةُ أمتارٍ فقط بينَك وبينها في موعدٍ أخْطَأَتَه مع نهايةٍ مبكّرة. وحين صَحَوْت من وقْع المفاجأة، كتبْتَ في المذكّرة أن القَتْلَ نخبويٌّ حتى وإنْ بَدَا «عادلاً» في الجريمَةِ، ووزَّعتِ الطائراتُ أحمالَها بالسَّوِيَّة. الخاطراتِ تمُرُّ سريعاً، في فجْوَةٍ بين لحظتيْن من التأمُّل، والقلبُ معبّأٌ بالانتظار، وأنت مستغرِقٌ في الانتباه إلى ما يمهره خَتْمُ النصّ في الختام. لا مكان

للوضوح في الظلام إلّا ما يرتله السلام على المحاربين من شروط الصّلح، لكن القادمين على دمهم يمزّقون الوثيقة، ويرمون على قارعة الطريق خطاب الاستسلام.

في بيروت؛ تَحْيَا وتموت، وتكتب فصول الإقامةِ والرحيلِ، وتمتشق الحُسام. لم يسألْكَ أحدٌ حسابَ ما فَعَلْتَ وانْتَوَيْتَ، غير أن حصَّتَك من الحريّة في التداعي كحصَّتِك في طلبِ الأمان: سيان. وليس عليك من مَلَامٍ إنْ تأخَّرْتَ في الوفاء بما عَليك تجاه نفسك والآخرين؛ فلديك من الوقت الكثيرُ من القليل كي تؤجّل وداعك إلى مدينةٍ أخرى يطيب لك المقام تحت ترابها. إن لم تَقْتُلْكَ الطائرات، فقد يتأخر موتُك، أو قد يزورك في مخْدَعك بعدَ استئذانٍ يليق بالكرامة. لستَ حريصاً على ملْكية الحياة، كمتَاعٍ خاص ملكية «دائمة»؛ فأنتَ تستأجرها كما تستأجر بيْتَ «ك» في العاصمة، ولكنك لا تَعِفُّ عن سخاء الزمنِ معك، حتى تُكْمِل بعضَ الذي بَدَأْتَهُ قبْلاً وأنت تستأخر القيامة.

في بيروت خاطبك الموتُ على مَقْرُبَهْ، وقال لك مالم يَقُلْهُ لك أحدْ؛ علَّمك كيف تقسّم يومَك على العدد، وتُفْرِزُ اللحظةَ المناسِبة لكي تتأمَّل في ما

تجهل. وهو جَمَّلَك في المرآة وأنت تبحث فيها عن علامات النهاية: ما بَكَّرَ منها، وما تأجَّل. لا تجاعيد إلّا ما في القلب، أما الجَسَدْ فما زال فيه قليلٌ ممّا يُطْلِق الجَلَد في نفسٍ شبهِ مُتْعَبَهْ. ولقد ذكَّرك بما كِدْتَ أن تنساهُ في ما سبق: أن لا تحوِّل الشَّبق إلى عقيدة، وأن لا تبدِّد الشحيحَ في ما تعشقُ الروحُ، وما تَطْلُبهُ القصيدة. وليس في بيروت ما يُضيف إلى موتِك القادم سوى أن تُنَبِّه الحواسَّ إلى مجهُولٍ تخبّئه فتنتُها فيك، ويُؤجّله شغفٌ بالنسيَان يعتريك. في المدينةِ العشيقةِ فتنَةٌ وفتنة، وأنت بينهما موَّزعٌ ومشرَّدٌ؛ لا تَقْبَل الإثنتين كضُرَّتيْن، أو حتى كوجهيْن مختلفيْن لعشيقةٍ واحدة. يكفيك أن تَفْتِنَك المدينةُ عن نفسك وعن سواها، فتعشقها وتعاقرها كامرأةٍ لستَ تَقْوى على هجْرِ هواها، لكن فتنتها في ذاتها موجعةٌ كوجع الموتِ والمَرَض؛ لأن رصاصَهَا يقتُل المعنى في الوجود، وينتهك البلاغة في مبْنَى الكلام. لكن الموت في بيروت يتكاثر، كأنه بشرٌ لا نهائيٌّ في وجبةٍ من زحام؛ يدخُل في نسيج اليومِ والسَّمَرِ والنومِ، ولا يَقلّ إلّا في أمَلٍ غامضٍ ويائسٍ من الإمكان.

الموتُ مذكَّرٌ في اللغة، والحياةُ أنثى في الحياة والمفردات. وقد يتأنث الموت حين يصبح رحيماً

بطريدته؛ حين يأخذها وهي في كامل عُدَّتها بكرامة، فليس من ملامة على نهاية يريدها صاحبُها راضياً بعد شَبَعٍ من الدنيا أو جَزَع. تأنيث الموت يهذّبه، يروّضه، ويعقد صلحاً بين المتناقضات، كما تروِّض المرأةُ وحْش الذكورة على سريرها. الموتُ مذكَّرٌ في الفصحى ومؤَّنث في المَحْكيّ، هل تدري أن الفارق ـ هنا ـ بين النظام والنَّثر: تتكلم الفُصحى بما يَزَعُ، ويتكلم الناس بما يقع، والوازِعُ سلطانٌ مذكّر: دينٌ، أو حاكمٌ، أو تقليدٌ، أو لِسانٌ، أو أبٌ. . .، والواقع حياةٌ تسيل كسَيْلِ الماء في أرْضٍ تُخْصِب، وكَسَيْل المَنِيِّ في رحِمٍ تُنْجب. هل تكذب الذاكرةُ على التدوين حين تعيد النظر في جنْس المسَمَّى، أم تذكِّر القُدَامى بأخطائهم في تقديس الذكورة؟ ليس للفحولةِ من امتيازٍ على نون النسوة حين تَخْنُقُها ـ بدخول طفلٍ صغيرٍ على المخاطَبَةِ ـ إلّا «امتياز» تفوُّقِ وَأْدِ البنات على قوانين الحياة! لكن الموتى عادلٌ/ عادلةٌ في التسوية بين المعذَّبين والطغاة، ولعلّه/ لعلها أعْدَل في هذا من الحياة.

يفكّر في الموتِ من يستعجله، أو ينتظره. وأنْتَ لم تَسْتَعْجِل، ولم تَنْظِرْ. لذلك، أَفْلَتَ الموتُ من تأملاتك الغبية، ولم تَسْتَضِفْهُ في ليْلِك سوى في طفولةٍ أرْعَبَتْهَا

أخبارُهُ في الحيّ، وجوّلَتْها إلى لحظةٍ شقيةٍ. تكاثر الموتُ أمام ناظرَيك وأنت صغير؛ ضحاياهُ في الحَيِّ، وجوارهِ، كُثرٌ، والجُنّازُ يَسُدُّ أفق المكان الضيّق، والصِّواتُ والأصوات تختلط في كرنفالٍ مخيف. وما كنتَ تدري، وأنت طريّ العود، ما الذي يضيف الموتُ إلى معنى الوجود، ولا لماذا يُقَدَّس في الصلوات وطقوس العزاء إلى هذه الحدود! كنتَ تقول في نفسك إنه كالثعبان، الذي كان يُرْهِق صيْفَك وخوفَك، لا يليق به غير اختصار الذِّكْرِ والشعائر، والقَذف باسمه في غيابة النسيان. ومَرَّ من الزمن الكثيرُ وأنت تخشاه مثلما تَخْشَى مدّرِسَ الحساب في المدرسة، وتخشى أخبار الجنّ ومواعيد الامتحان. ثم بدأْتَ تنْسَى سؤال الموت والوجود، وتحتقر درس الميتافيزيقا حين أصبحت للفلسفة، في أوّل شبابك، رفيقًا، وحين بدأْتَ تترفَّع عن أسئلة اللامرئيّ، واللاماديّ، فتَعُدُّها ـ في مذهبك ـ تخرُّصاً مُرُوقا.

رَحَلَ لكَ أهْلٌ وأصدقاء، فباغتَك الموتُ بسؤاله. وخانَكَ شبابُكَ سريعاً فذكَّرَكْ بما أجَّلْتَ من التَّأمُّلِ إلى موعد آخر. لكن جحيم بيروت خصوصيٌّ في المسألهْ؛ فلقد كنتَ في الضاحيَهْ، خارجاً لتوِّك من «المنار» حين اشتعل المكانُ بقذيفهْ، وانبطحْتَ في

سيارةٍ تسير بك إلى المكان الآمن. كنتَ كالكاهن: موقناً بالنهاية وجاهلاً للسبب. ولم تكن ترغب، حينها، في أن تموت؛ فالقرن العشرون لم ينصرم بعد، وما كان إبريلُ موعداً مناسباً للرحيل، ولا كنتَ تريد أن تشتعل كالحطب. وبعد أشهر، في صيف العام السادس والتسعين من نفس القرن، رَحَل قرينُك في الرأي، بعد أن رويْتَّ له ربيع «عناقيد الغضب»، وبقيت وحْدَك تَحْسَب ما قد يكون تبقَّى لكَ من الأجل كي تلتَحِقْ.

وانتظَرْتَ عشراً من السنين كي تعاوِدَ التجربةْ ما أرحَمَ الموتَ السابق من الثاني؛ هي واحدةْ أفلتْتَ منها، بأمتارٍ في الضاحيةْ، ولم تكن ـ بعدها ـ تسمع القصف إلّا من مَبْعَدَةِ ألفيْ متر وإنْ أحْسَسْتَهُ على مدخل الفندق. الآن يلاحقُك الموتُ في كلِّ شارع وزَارُووب؛ فهو عبثيٌّ وجائعٌ لطرائدهِ البشرية، وبيروتُ مكانُهُ المفتوح من الشمال إلى الجنوب، حيث الهواءُ معبَّأ برائحة البُنْدُق. صيفُ العام السادس في القرن الجديد صيف موتٍ خرافيّ لا يكتُبُهُ أحدٌ، وإن كَتَبَهْ؛ في قذائفه نارٌ تُحْرِقُ العبارهْ، وتحوِّلُ القصيدةَ إلى تَرَفٍ يتأبَّاهُ شاعر. وكنتَ تُقَامِرُ بما لديك من القليل من الحياة من أجل الشهادة، وليس لك في

النضال قِلَادهْ خارج أسوار الجامعة، وبعضٍ زهيدٍ من الرأي المطرَّزِ بمفردات الشجاعة. وماذا بعد مجاعةِ النفسِ إلى ما يجاوزُ حدَّها الواقعيَّ من الإمكان سوى طلب المستحيل. هل كنتَ، إلى هذا الحد، تجرّبُ معنى البطولة، وتْطلُبُها رأسمالاً جديداً في درج مَكْتَبِكْ؟ لكنك كنتَ تعرف أن طالبَها قد لايظفر بها حيّاً؛ قد تكون له بعد أن يرحَل عن عيون الشهود على الشهداء. ولقد كنتَ تأبى الموت كي تدوِّن شهادتك، وتُكْمِل جملةً من المعنى لم تكتمل. فلماذا، إذن، فاضتْ فيك الشجاعة؟!

بقيتَ، حيثُ أنت، فيما غيُرك غادَر المدينةَ والبلاد؛ باحثاً عن السلامةِ تحت رايتهِ أو في الشتات. وكانت بيروت تهتز من وقع القذائف؛ في كلِّ ثانيةٍ صاروخ، وبين الشهقة والزفرة خمسٌ، وليس في بيتك كهرباء، أو خبزٌ، أو هواءٌ نقيٌّ. والحرارةُ قاسيةٌ في الصيف، وأجْمَحُ قسوتها الرطوبةُ. وحين تنزل من بيتك، عليك أن تمشي بحذر لئلّا تَلْمَحَك الطائرات من دون طيار، فتأخذ جسمَك مثلما أخذت أجسامَ غيرك على قارعة الطريق. والصعوبةُ في أن تجدَ نفسَك وحيداً: باحثاً عن دفءِ صوتِ أختٍ لك من بعيد، حين حاصركَ الأصدقاء بالصمت. يا وحدي:

كنت تقول، وتلتمس الأعذار للفلسطينيين. هكذا كنتَ تستفيق على حقيقة التشابُه بين أمس واليوم؛ ما ينصرم من الزمن وما يَحين.

إسرائيل عزرائيل؛ لكنها غيرُهُ في الطبيعة؛ لأنها شيطان الموت وهو ملاكُهُ. والموتُ في لبنان فائضٌ كتفّاحِهِ والعِنَب في فصلٍ سخيّ، وهو عارضٌ في الهدأةِ مثل الأنفلوانزا في شتاءٍ قاسيّ. ولقد كنتَ في غنىً عنه في ذاك الصيف، لولا أنّ في الحطّةِ والعِقال بعضَ كيْدٍ وغباء، ولولا أن في أسفار التوراتيِّ بعضُ جوعٍ إلى الدم. لبنان وحدَهُ، في وحْدِهِ، أحدُ: لا شقيقٌ، ولا أخٌ، ولا صاحبٌ، ولا نصيرٌ، ولا مَدَدُ. وأنت، تحت الوطأةِ، تَغْتَمّ، وتسأل العروبة عن عروبتها! ولكنّك لم تكْفُر بما تعلَّمْتَ منذ الطفولةِ من دروسٍ في التاريخ. قُلْتَ، في خجل، إنّ للعروبة عنواناً يحملها: اسماً للعُلا، ووجهاً حسناً منصوراً، وفتيةً في المَشَاهد يستبسلون. أما الذين، بالكلمات، على يسارهم فيشبهون المُخَلَّفين في حروب النبيّ!

وفَرِكَ الموتُ، مرَّةً أخرى، وعَفَّ عند المغنم. لكنك تعلَّمت من تَذْكِرَتِهِ كيف تهتم بما تبقّى لك من فسحةٍ قبل النهاية؛ لم تَرْحَمِ القلبَ المُتْعَبَ من عادتك القاتلة: النوم المؤجَّل حتى انصرام الليل،

ومعاقرةِ السيجارة. علبتان قد لا تكفيان كي تمدِّدان الليلَ حتى آخره، ولذلك لا بدَّ من المخزون، لئلّا تنفد الذخيرةُ قبيل الفجرِ، وتنسدل على القراءة الستارة. وليس على الجَسَد أن تستلقي كثيراً: أربع ساعات ليست قليلة، ولا بأس من ساعةٍ أخرى إن مَسَّه تَعَبٌ من سفرٍ أو إجهاد. أمّا قيلولةُ نصف الساعة في الظهيرة، ففيها ـ وحدها ـ ميزان الاعتدال.

يكذب الطبيب عليك حين ينصحك بتغيير عاداتك في الأكل، والنوم، والتدخين؛ يقول ذلك لغيرك كأنه يؤدي واجباً مدرسيّا رتيباً. ربما كان مدخّناً مثلك يمارِس التقيَّةَ في العيادة، وربما أدْمَنَ المالحَ والحُلْو مثلك، لكنه ـ باسم العلم ـ أنانيٌّ؛ يُبيح لنفسه ما ليس يُبيح لك. تَعُضّ على الجُرْح وترضخ لِلآءاته في الأكل، فتتجرَّع ـ كالحيوانات ـ طَعْم طعامٍ لا ملح فيه ولا حلاوة. تَفْعَل ذلك مُرْغماً، وأنت تلعنُه في السرِّ، لكنك لا تَعِدُهُ بتغيير قواعد النوم، ولا بالتضحية بحقوقك في التبغ. يحذِّرُك من العواقب، كفقيهٍ يحذِّركَ من مغبّة انتهاك فتواه، فلا تَرُدُّ: لأنك لا تَعُدُّ كم تبقَّى من أيامك، ولأنك مُوَلعٌ بحدْسِك.

أخطأكَ الموتُ مرَّتيْن، وأخْطَأْتَه مرَّاتٍ عشراً؛ كلما اقترب من جسمك، ابتعدتْ منه نفسُك كأنك

عنه لاهٍ ومُعْرِض. لكنه، في كلّ مرةً يقترب، يكسب نصْرَهُ عليك بالنقاط: مثلما يفعل ملاكمٌ غيرُ متهوّر على الحلبة. وأنت لم تعرف كيف تُقْرِض موتَك قرضاً حسناً ليكون لك من سعةِ صدره زمنٌ فائض عن حصتك؛ وما همَّك، بعدها، إن كان الفائض شحيحاً: عاماً أو شهراً، المُهِمّ أن تلقاهُ هادئاً بلا جلبة، وأن تَسْكُنَ إلى بقيّةِ حظِّك في الكِيَانَةِ كما يَسْكُن زوجان إلى ما تقول فيهما الطبيعة.

XIX

لو كنتُ أنا أنتَ، وكنتَ أنتَ ماأنا، كبيتٍ في قصيدةٍ مجهولة الوزن والقافية، لكانَ علينا أن نكون اثنيْن، حتى يختصر المجاز دعابته، ويَبْرَأ الواقع من نوبةِ زكامٍ قويّة.

لو كنتُ غيرَ ما أنتَ، وكنتَ غيرَ ما أنا، لكان على «الأنا» أن تهجُر المثنَّى، فتلهج بالمفرد، ولكان على الغيْرية أن تخاف ممّا يجعلها اثنيْن في معنىً مجرّدٍ تنقسم عليه الهوية.

أنا أنتَ، وأنتَ أنا، بلا سبب يدعونا إلى الاستغراب مما يجعلنا نوناً راحلة بين الجمع والمثنّى، كناقةٍ تألُفها الصحراء كما يَألف المكانُ المكانَا.

أنت أنا، وأنا أنتَ، ولقد كنتَ تَقُولُنِي غيباً، وأنا أسميك ما أشاء لئلّا يكبُر الفارق بين الطبيعتيْن، ولئلّا يتسرب هواءٌ فاسدٌ إلى مفردات الراوي.

كان لي ما أُخفي عنك وما أُجِنُّ؛ من عتبي على المثنّى في لسان العرب، من شغفي بالسكوت على ما مضى وانقضى من رسوم الزمانِ ومن عروش القصب. كان لي ما أبوح به إليك، وأنت تلهو ببقاياي فيك، حين بارحَكَ الحنينُ إلى تسقُّطِ أخباري، وما بارحك الغضب.

لم تَكُنّي دائماً مثلما كنتُك؛ مستسلماً لمقادير يَدْيْن تفتحتان أفقاً تهدَّم، وجملةً راكدة في معلبَّات الأدب. كنتَ كالحطب؛ يابساً في العواطف، ووقوداً يُشْعل اللهب. ولم أَهَبْ نفسي وقتاً لأفهم أنّ قسمة الواحد على اثنيْنِ غيرُ عادلةٍ في شريعة الطبيعة.

لم أُصَبْ بكَ إلّا متأخراً؛ حين أصابني مسٌّ من جَلَدٍ، وانتبهْتُ إلى دبيبِ التناقض في لغةٍ تركتُها معلَّقةً على جداريَ الخَلْفيّ. حسبْتُك - حينها - آخَراً لي يسْكُنُني، ويزاحمني في حصتي من الطبيعة؛ ينظر بعينيّ، يسمع بأذنيّ، يأكل بيديّ وفمي، يمشي بقدميّ، ولا يشاطرني أفكاري، وحين أخشى جنونه

المفاجئ، أدرِّب طيْشه على التُّؤدة، مثلما يدرِّب السائسُ وحْشَه الضاري.

هكذا حسبتك ورتَّبْتُ أموري، فقسمت، بالميزان، حصَّتنا من التعايشِ: لك النهارُ كلّهُ مملكةٌ تَحْكُم فيها وتُحْكَمُ، والليلُ لي وحدي ـ وإنْ كنتَ معي ـ حصةٌ ومَغْنمُ. وإذا اختصمنا، فلا بأس من أن تُقْرِع بيننا على مَن يَحْمل وزْرَ الخصومة، لئلّا يذرونا الخلافُ، ويتبجَّس الغيم من غدنا.

تأتيني، فجأة، وتسألني الرِّفادة، بعد هُلْك متاع رحلةٍ تبدأها وتقطعها في المنتصف. أجيب الطلب مُكْرهاً لئلّا تشحَّ الصّداقةُ، وينهار الجوار. وإن كان لي حقٌّ الاحتساب؛ أترك لك الباب شبه مفتوح للخروج من التيه، والحيرة. أمسِك عن الكلام في اللحظة حتى لا أجرِّعك الشعور بالاكتئاب.

وماذا كنتَ تريد مني، يا آخَري، أكثر؟ تَحَمَّلْتُ جِوَارَك الفوضويَّ مُذ ولِدْتُ ووُلِدْتَ فيَّ. وتعلَّمتُ كيف أحمل عنك ثقيلَك حين تتركه على قارعة الطريق، فأعضّ على جرحي، كي أُشْفى من شعور الضحية. وألِفْتُ، مع الأيام، مزاجكَ النزق، وما عاد شيء فيك يَفْجَؤني، لكن الخيبة منك لم تفارق مكاناً في القلب.

هل تريد أكثر مما مَلَكَتْ يميني حتى تقول إني انْصَفْت؟ أخرجتُ ما أخرجْتُ من متاع يدي، وما تركتُ لنفسيَ منها شيًّا! فهل أضعت الخيل التي أَوْجَفَتْ؟

ألِفْتُ جنونك، ولازمني، حتى بتُّ أقيس به التوازن بين ما أبْصِر وما أتخيَّل. وحين تختفي فيَّ، ويسكُنك السكوت، يكبر في نفسيَ الغياب. شيءٌ ما يَمْرَض في الصورة وينتعل السحاب. قد يُمْطِر، وقد يَعْبُر، ولا يترُك ما يدلّ على الندى. المدى صَخبٌ من بلّور الصمت، والمزاج يباب حين لا تبالي.

أعلّق في فراغي طيفكَ الحاضرَ حتى لا أصاب بالوحشة، فيلوذ كلامي بغمده، وينقطع منيّ نَسْلُ المعاني. أنا ما أعاني؛ أنا المغموس في ماء التسامح وإن مسَّني قَرْحٌ؛ أنا المجبول على التراجع حين أتقدّم، وأنا المسكون بالصهيل في قصيدةٍ لا يرتفع فيها الغبار إلى أعلى، ولا دمٌ يُسْفَك فيها ويصرخ جرحُ. كم كنتُ أصحو على صوتٍ بعيد يُضَاهِئُني، فلا أجد بين دفاتري غير همّةٍ توشك على التقاعد، وبقايا روائح من ماضي هَمْدَان تشدُّني إلى غدٍ خالٍ ممّا يُهيّئه السؤال.

أنا جبيني، وما تركتُ على حصير الكُتّاب من

بَلَحٍ مُرٍّ يكفيني لأحفظ الذكرى من بَدَد الزمان. وحنيني، كأنيني، صوتٌ مُشَرَّدٌ في البعيد، ويأتيني حين اتخفَّف من رأسي، وأُخْلِدَ الجِسْمَ المضرَّج بالعَرَق الصيفيِّ للسكون. وأنا حارسُ جفونك منك حين تتبجَّس من مفرداتك لغةُ اليقينِ. ماذا تريدُ أكثر يا أنايَ المنشَقَّ عني؟ ماذا تريد يا ساكني أكثر ممّا تأخذ من حصّتي في يَقْظتي والمنام؟ إثنان نحن في واحدٍ منذ الميلاد، فهل أخطأَتُ حين زوَّجْتُ التناقضَ، ووضعتُ دستوراً للسلام؟ لكَ الواقعيُّ وليَ الخياليُّ، لكنّك ما رضيتَ بالقسمة، ولا هيَّأْتَ لي دَرَجاً للصعود إلى المُحَال. لو كنّا واحداً في اثنين؛ لَكُنْتُكَ، ولَكُنْتَني، ولَانْتَهَى الذي بيننا من خصام.

يَحَارُ نِصْفِيَ الأوَّلُ في نصفه الثاني؛ في بَذْخِ غرائبه الواقعية، وفي ما يتركه من معلَّقاته الخياليةِ على مشجب المستحيل؟. كأن الذي بيننا، يا شريكي في أنايَ، لا يستقيم بالتفاهم إلّا على غموضٍ أبديّ لا يُبَدِّدُهُ دهْرٌ، ولا أحدٌ. وأنت، وحْدَكَ تختار أن تبتعد عني كما يبتعد راهبٌ، تَهَتَّكَ، عن تعاليم الإنجيل. ماذا لو أن محصول جَمْعنا بَدَدُ؛ هل كنتَ لتمنحني حقَّ الشعورِ بالبراءةِ من دمِك؟ وهل كنتُ لأعْرِض عن طريقك وإن أخْطَأْتَ الطريق؟ ما كان أغنانا عن

التباغُضِ لو أن للتناقض بيننا ما يرشِدُهُ إلى أُفُقٍ آخر يقتصد فيه الخلافُ خلافَه، ويفتح أمَام مُغْلَقِهِ السبيل.

سوف أُدّوِنُك، يا آخَرِي، في دفترِ أنايَ بِحِيادٍ يليقُ بك؛ سأصُبُّ صورتَك في مفردات مناسِبة، وسأروي عنك شهادتي فيك مثلما أراك في مرآةِ دمي. سأنسى ما بيننا من جفاء، فأردُّهُ إلى مصادفات الطبيعة، ولن أتحسّس كثيراً من أذاكَ في كلامي؛ فأنْتَ - مثلي - تُسَابِق الوقتَ كي تكون ما أنتَ، وأنا مثلُك غارقٌ في تنظيم مقامي، عساني أعْثُر في أرخبيليَ المُوَسَّع، والموزَّعِ، ما أرْتَق به فُتُوقَ انقسامي، وعساني أجدُ في فوضاكَ البديعَةِ ما يَحْمي التدفُّق في لغتي، ويَحْرُسَ التماسكَ في نظامي.

سوف أرثيك غداً، بعد عُمْرٍ طويلٍ، يا آخَرِيَ المتلبِّثَ في أنايَ كسكونٍ في آخِرِ القصيدةِ يلازِمُها. ذكراك الطيبةَ سأحمِلها، مثلما أَحْمِل في داخلي خوفي على غدٍ لم أرَهُ، وعلى حبٍّ لم أشهد بدايتَهُ خارَجَ خيالي. سأُغضي عن الإساءة؛ إنْ لَسَعَتْنِي منك، ولن أبالي إن كان سيجرحني طَعْمُها إذا ما عَضَضْتُ عليها في إمساكةِ لَيْلِي، أو أخذْتُ من علمقها حِصّتي من المرارة، مثلما أخذت حصتي في الضغط الدمويّ من ميراث أهلي.

سوف ألتمس لك العذرَ في ضيقِك من عاداتي؛ فأنت واقعيٌّ إلى حدٍّ مخيف، لا يسْكُنُك هوى الشِّعر. ولو أنتَ عرفْتَهُ، وعاقَرْتَهُ، لتغيَّرْتَ، ولَصَحِبْتُك أكثر، ولكُنْتَ أعفيتني من عتابٍ أبحث عن مفرداته الوديعة في النَّفقِ لئلّا أجرحَكْ؛ فالشّعْر - يا آخَري - كالنبيذ المُعَتَّقِ؛ كلّما تخمَّر أكثر، لَعِبَتْ في الرأسِ نَفْحَتُه، وانسابَتْ حكمتُها في الوريدْ. وهو كماء الزَّهر المُقَطَّر؛ إذا حُجِبَ عن الريح والضوء، فاحتْ رائحَتُهُ في البعيدْ. لكنك، من زمنٍ، راكبٌ صهوَةَ جنونك في الهروب. غير أنِّي أخشى عليك منك ومن رغوةِ الغِمَارِ في المجهول.

سوفَ أعيدُك إليَّ في القُفُول؛ حين أجرِّدُ نفسي من خارجها، وأُطْلِقُها في نفسي كي تُعِدَّ لي سلامي. أنا لا أرميكَ بباطلٍ لا تَرْكَبُهُ، ولو أن فيك ما أَضْيق به ولا يرضيني: تتجسَّس عَلَي في منامي، فتقرأهُ عارياً، وتراقبني كأنك لا تراني، وفي الغد تحاسبني على حقّي في التداعي! أعرفُك مُذْ كنتَ صغيراً، يا نصفيَ الثاني، فأنت لا تراعي حُرْمةً للشراكة، وأنت لا تريدها نصفيْن بالتساوي، وأنا لا أستطيع أن أمنحك أكثر من فائضي لتملكه، وليس لكَ عليَّ مزيدُ حقٍّ لتستردَّهُ؛ نحن اثنان في واحدٍ يتساويان، ويختلفان في

تقدير الحصص: حصَّتُك مني الاعتراف بك، وبطيْشك، وحصتي منك المجادلة في شِرعتي! فما نصيبُك منّي مِثْلُ حصّتي في ميزان العدل: إنْ كنتَ قد سلكْتَ طريقَ الأبجديةِ، واهتديْتَ إلى الفارق بين شريعةِ الغريزة ومملكة العقل، وما أنا بوارثٍ منك غير ما يَعِفُّ عنه مزاجي، وبضعةٌ من حروفِ اسمٍ لي لم يكتمل رَسْمُه على مصطبة الدهشة.

في الحَيْرةِ أسئلةٌ لم يُجب عنها غَدُك المتوحِّلُ في مكان التقاطُعِ بين الرعونة وغيابي. وأنا لا أحابي شعورَكَ حين أَعْذرك؛ فأنت يليق بكَ العُذْرُ، مثلما يليق التأفُّف بما تصنعه يداك من العبث. يبدّدني العُمرُ، ويبدّدك الانتظار: يجرِّدك من يديكَ ومن صوتك، ويرميك في الغموض كما تُرْمى المناديل جزافاً في غير مكانها. لكنك تُسَارِع، في النهار، إلى مَحْوِ آثار الهزيمة من عينيك: كعنقاء لا يخنقها الرماد. وأنا لا أبحث عن فرصةِ حدادٍ حتى أرثيك فيَّ، وأخلِّص روحي مما يخالطها، ويمنعها من التفرُّدِ؛ فأنا من دونك ناقص، أو عدمٌ مجرَّدٌ لا يملأ فراغَهُ شيءٌ أو أحدٌ، وأنا في غيابك مهيَّأٌ للتشرُّد. أبحث، فحسب، عمَّا فيه أرى نفسيَ فيك: صمتك. وصمتُك ينطِق بما تُخْفيه تقاليد الباطنية؛ صمتُك

يفضح حياد البياضِ الطليق في لسانك، ويهزم تعاليم التقية؛ وصمتُك أجْهَرُ من الكلام حين تخفي صمتَك في صمتك، وهو مرآتُك حين لا تَعْرِض فيها صورةً لا تتقمَّصها، وهيئةً لا تُحْسِنُها؛ هو كلامُك الذي لا يُلْفَظ، وسرُّك المكنونُ في الخَرَس، وهو الجَرَس الذي لا يُقْرَع حين يملأ السماء والقلاع. صَمْتُك يخْرُج من سجن لسانك كي يُذَاع، وكي تنشُرَهُ الكُتُبُ في شَعْب القراءة.

لو كنتَ غيرَ قريني، ما همَّني أمرُكَ، ولا أقمتُ لك في داخلي عرشاً أو شِبْهَ مقْصَلَهْ؛ فأنتَ ثانيَ اثنيْن فيَّ، وقسمةٌ تَعْصَى على العددْ، وأنتَ عندي نصفُ متاعي من الدنيا، وما تسُدُّ به الروح الأوَدْ. أنتَ لا أحدْ، إلّا إذا كُنْتُك، وأنا لا أحدْ إلّا حين تكونُنِي، وينزاح المثنى عن فِعْلِ جَمْعٍ لا يتفرَّقُ، في لفظٍ مُفْرَد. لِمَ، إذن، تعاكسني يا شريكي في أنايّ المقسومةِ، ويا قريني في جبيني وفي جنوني؟ قد يصدُّك عنّي صدى مفرداتِ كلامي، لكنّك - عبثاً - تبدِّد الذي بيننا ممَّا لا تقولُهُ المحْبَرَة، ولا تقرأهُ عينان تبحثان عن مستحيلٍ في تفاصيلَ سادِرَةٍ في الظلام. ولو كنتَ غير قريني، ما همَّني سرُّك، ولا أضعتُ وقتي في رتْقِ ما تَفَتَّقَ بيننا، وجَمْعِ ما تبقّى من شظايا ماضٍ تبدَّدَ في

الحُطام. كُنِّي أكونُك، وأحبُّك، وأحميكَ من غضبي إذا اشْطَطَّ، ومن تعبي، وأعطيك سلامي.

*

لو كنتُ أنا أنتَ، وكنتَ أنتَ ما أنا، كبيتٍ في قصيدةٍ مهجورة، لكان علينا أن نربّيَ الشعور بأننا اثنان في واحدٍ يتَّعِدان على معنًى لم يكتمل على حافَّةِ الغيابة. . . والفراغ.

لو كنتُ غيرَ ما أنت، وكنتَ غيرَ ما أنا، لكان على «الأنا» أن تتأنى في كتابة سيرتها عن غِيرتها على نفسِها من القارئ، ومن شهوتها حين يركبها جموحُ الجنون.

أنا لا أنتَ، وأنت لا أنا، وعلينا أن نعترفا بعُسْر التشابهِ بلا مُكَابَرَهْ، وأن نتْرُكَ للزمان مكانَهُ كي يقضيَ بيننا في الخلاف، ويوزّع علينا بالتساوي حسابَهُ؛ فقد يُغنينا عن عبث المناظرة بين مزاجيْن لا يلتئمان، إلّا على خصامٍ أبديّ، كما تلتئم عينان متعبتّان على خيالٍ يَفِرُّ منهماً، وقد يُهْدينا مدادَهُ لنكتبَ، من وحْيِ الغياب، غياباً.

بيروت: صيف ٢٠١٢

لَيْلِيَّات

نص

ليليَّات تحرِّرنا من الكآبة في قراءة صامتة، بكلمة سرِّيَّة مبعثرة كالماء، وهي تصنع مجراها وتتدفَّق، ولا شيء يمنعها...

ليليَّات لا يُرْهِقُها بقواعد السِّياسة، والثَّقافة، والخسارة، والحرب، والملاحم، والهزائم، والمرأة، والشَّهوة، والحسرة... يرفعُ القيدَ عن حميميَّاتٍ، ويحرِّرُ الكتابةَ من ضجيجها...

يا صديقي، لقد جَعَلْتَنِي نهائيّاً، تلك هي لذَّة قراءتك. أرتشف منها دوماً، وتفعمها دوماً حياة نديَّة. لن أنسى رائحة المكان، وقد سافر معي طويلاً. أقرأ لأختصر الطَّريق الطَّويل: باب البيان، وباب الكلام، وباب الصَّدى، وباب الشِّعر، وصولاً إلى بابها، وعلى ورق متبادل نلتقي لنضيء عتمة اللَّيل.

قدرتك على خلق الكلمة جعلتني أتفتَّح على ذلك السِّرّ الوسيع، مثل برعم الغاب الَّذي يتفتّح عند منتصف اللَّيل.

لقد استدرجَتْني ليليَّاتُك، كما كان يستدرجني البُرُقُ إلى خيام النَّوَر تحت جسر الدَّجاج...

يأتي الكتاب بكامل سطوته كلسانٍ جميل في لغة الضَّاد... يتحرّك ويملأ الفضاءات... ما أحاول أن أكتبَه هو تعبير عن الارتباط الوثيق بين اللُّغة والصَّداقة، وشاهدٌ على ما فعله من تمرُّدٍ على الواقع، دفاعاً عن الوجود...

مرسيل خليفة



ISBN 978-614-428-025-6

منتـدى المعـارف

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb